فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

المنشئ ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق

١١ رجب سنة ١٣٥٢ برج العقرب سنة ١٣١٢ هـ ش ٣١ اكتوبر سنة ١٩٣٣

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

(٤٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤١) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

لما بين تعالى في الآيات السابقة حال مشركي قريش في اتهام النبي ﷺ بافتراء القرآن وبتكذيبهم بوعيده لهم ، بين في هاتين الآيتين أقسام هؤلاء القوم في تكذيبهم ومستقبل أمرهم أو حالهم ومستقبلهم في الايمان، وفي عمل المكذبين بمقتضى تكذيبهم، وعمل النبي ﷺ بمقتضى رسالته إلى أن يأتي أمر الله فيهم قال:

﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ﴾ يقول تعالى لرسوله خاتم النبيين ﷺ ان قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذي كذبوا رسلهم الا قليلا منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين: قسم سيؤمن بهذا القرآن وقسم لا يؤمن به أبدا ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ في الارض بالشرك والظلم والبغي لفساد فطرتهم وفقدهم الاستعداد للايمان وهم الذين يعذبهم في الدنيا فيخزيهم وينصرك عليهم ويجزيهم في الآخرة بفسادهم. وقيل ان الآية في بيان حالهم عند نزول هذه السورة وهي ان بعضهم يؤمن به في الباطن وانما يكذبه في الظاهر عناداً واستكباراً ، ومنهم من لا يؤمن به جهلا وتقليدا ، ومن هذا الفريق من فقد الاستعداد للايمان وهم الاقلون وسيأتي وصف حالهم في الآيات ٤٢ — ٤٤ قريبا وله وجه . وأما الذي ليس له وجه صحيح فهو قول من فسروا التأويل بالمعنى الاصطلاحي الذي بينا فساده : ان هذا بيان لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقع أي سيكون منهم حينئذ مؤمن وكافر ، لما بيناه من انه غير مراد ولا معنى لاتيانه ، وانه متى جاء التأويل المراد وهو وقوع العذاب يكون الايمان به اضطراريا عاما وهو المنصوص في قوله تعالى (٧ : ٥٣ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) وتأويله بعذاب الاستئصال أو بقيام الساعة لا ينفعهم إذ لا يقبل منهم الايمان حينئذ بل يقال لهم (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) كما يأتي في الآية (٥١) من هذا السياق ، وسنبين في تفسير الآية (٤٦) منه عدم وقوع عذاب الاستئصال على هذه الامة وفي الآية تسلية له ﷺ يؤكدها مابعدها وهو :

﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾ أي وان أصروا على تكذيبهم فقل لهم لي عملي بمقتضى رسالتي وهي البلاغ المبين ، والانذار والتبشير ، وما يستلزمه من العبادة والاصلاح ، وما أنا عليكم بمسيطر ولا بجبار ولكم عملكم بمقتضى تكذيبكم وشرككم ، وهو الظلم والفساد الذي تجزون به يوم الحساب ، ويقال لكم (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) كما يأتي في الآية (٥٢) من هذا السياق وهذا

كقوله تعالى (١٧ : ٨٤ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ فلا يؤاخذ الله أحداً منا بعمل الآخر . وهذا كقوله (١١ : ٣٥ أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلي اجرامي وأنا بريء مما تجرمون) وقوله (٢٦ : ٢١٦ فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون)

---

(٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٣) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

لما أنبأ الله رسوله بان من قومه من لا يؤمن بهذا القرآن حالا ولا استقبالا إذ لا ينفعهم البيان مهما يكن ناصعاً ، ولا يقنعهم البرهان وإن كان قاطماً ، وان الذي عليه في المصرين على تكذيبه منهم بعد ماجاءهم به من الآيات ، التي دمغتهم بالحجج البينات ، أن يتبرأ منهم ، وينتظر أمر الله فيهم ، كان من شأن هذا النبأ أن يثير عجبه لغرابته في نفسه ، وأن يسوءه لما يشير إليه من انتقام الله منهم ، بين له مثل الذين فقدوا الاستعداد للايمان ، وعلمه مالم يكن يعلمه من سنة الله تعالى فيهم ، وكون مصيبتهم من أنفسهم ، فلا حول له ولا قوة على هدايتهم ، فقال :

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يصيخون باسماعهم مصغين إليك اذا قرأت القرآن ، أو بينت مافيه من أصول الايمان والاحكام ، ولكنهم لا يسمعون إذ يستمعون ، إذ لا يتدبرون القول ولا يعقلون ما يراد به ، ولا يفقهون ما يرمى إليه ، لان الاستماع إليك مقصود عندهم لذاته لا لما يراد به ، وهي بلاغته في غرابة نظمه ، وجرس الصوت بترتيله ، كمن يستمع الى طائر يغرد على فننه ، ليستمتع بصوته لا ليفهم منه ، كما قال (٢١ : ٢ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم

يلعبون ٣ لاهية قلوبهم) أو كالبهائم يصيح بها الراعي فترفع رءوسها لاستماع صوته الذي راعها فصرفها عن رعيها ، كما قال (٢ : ١٧١ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمي فهم لايعقلون) أو كما قال (٦ :٢٥ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) والقاعدة الطبيعية الشرعية ان الامور بمقاصدها . ونحن نرى كثيراً من الناس يقصدون قراء القرآن في ليالي رمضان أوفي المآتم ليستمعوا الى فلان القاريء الحسن الصوت لغرض التلذذ بترتيله وتوقيع صوته ، ولا أحد منهم ينتفع بشيء من مواعظ القرآن ونذره، وحكمه وعبره ، ولاعقائده وأحكامه ، ومنهم المسلمون وغير المسلمين ، بل سمعت بأذني من غير المسلمين من يستمع القرآن ويعجب من شدة تأثيره وتغلغله في أعماق القلب وهو لا يؤمن به ،ولهذا قال تعالى

﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴾ هذا الاستفهام للانكار ، يعني ان السماع النافع المستمع هو ماعقل به مايسمعه وفقهه وعمل بمقتضاه ،فمن فقد هذا كان كالاصم الذي لا يسمع، وأنت أيها الرسول لم تؤت القدرة على إسماع الصم أي فاقدي حاسة السمع حقيقة ، فكذلك لا تستطيع الاسماع النافع للصم مجازاً وهم الذين لايعقلون ما يسمعون ولا يفقهون معناه فيهتدوا به . والبلاغة في ظاهر تعبير الآية وصفهم بفقد السمع والعقل معا ، وهو مجاز قطعا ،لان من فقد الحس والعقل حقيقة لايكون مكلفا . واذ كان المراد بالعقل المنفي هنا عقل الكلام وفقهه فهو يقتضي ثبوت السماع ونفي الصمم الحقيقيين

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أي يوجه أشعة بصره اليك عند ماتقرأ القرآن ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الايمان ، وهيبة الخشوع للديان، وكمال الخلق والخلق ، وأمارات الهدى والحق، وآيات العزام الصدق، التي عبر عنها أحد أولي البصيرة بقوله عند مارأى النبي ﷺ : والله ماهذا بوجه كذاب، وقال فيه آخر

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

وقال حكيم افرنجي : كان محمد يقرأ القرآن في حالة وله وتأثر وتأثير

فيجذب به الى الإيمان أضعاف من جذبتهم آيات موسى وعيسى (عليهم السلام) ومن فقد البصيرة العقلية والقلبية فيما يراه ببصره، فجمع بين وجود النظر الحسي بالعينين، وعدم النظر المعنوي بالعقل، فهو محروم من هداية البصر وهي البصيرة التي يمتاز بها الانسان عن بصر الحيوان، فكأنه أعمى العينين ﴿ أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون ﴾ أي أفأنت أيها الرسول قادر على هداية العمي بدلائل البصر ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة؟

والمراد من الآيتين ان هداية الدين كهداية الحس، لا تكون إلا للمستعد لها بهداية العقل، وأن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجه النفس وصحة القصد، وهذا الصنف من الكفار قد انصرفت أنفسهم عن استعمال عقولهم في الدلائل البصرية والسمعية لادراك مطلب من المطالب مما وراء شهواتهم وتقاليدهم، وليس المراد أنهم فقدوا نعمة العقل الغريزي ولا نعمة الحواس بل استعمالها النافع كما قال في سورة الاعراف (٧ : ١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالانعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون) فراجع تفسيرها للاعتبار والاتعاظ. وقد بين ذلك بيانا مستأنفا يبطل القول بالجبر فقال

﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾ أي ان الله تعالى لم يكن من شأنه ولا من سنته في خلق الناس أن ينقصهم شيئا من الاسباب التي يهتدون باستعمالها الى ما فيه خيرهم ومنافعهم من الأعمال الاختيارية الموصلة الى سعادة الدنيا والآخرة وهي الحواس والعقل وسائر القوى. فالظلم هنا بمعناه اللغوي الاصلي وهو نقص ما تقتضي الخلقة الكاملة وجوده كقوله تعالى (كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا)

﴿ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ أي يظلمونها وحدها لان عقاب ظلمهم واقع عليهم دون غيرهم، فهم يجنون عليها بكفرهم بما أنعم عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين، وهو عدم استعمالها فيما منحهم الله إياها لأجله من اتباع الحق في الاعتقاد والهدى في الاعمال، وهو الصراط المستقيم الموصل الى سعادة الدارين،

المنجي من عذابهما . وقرأ حمزة والكسائي (ولكن) بتخفيف النون و(الناس) بالرفع .

وقد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير إذ قال «ولكن الناس» ولم يقل «ولكنهم» للاشارة الى ان هذا الظلم خاص بهم دون سائر أنواع الحيوان فانها لاتعدو في استعمال مشاعرها وقواها ماخلقت لاجله من حفظ حياتها الشخصية والنوعية ، وأما الناس فانهم يستعملونها فيما يضرهم في حياتهم الحيوانية الدنيوية ، وفي حياتهم الروحية الاخروية ، كما قال (أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا) وقدم المفعول (أنفسهم) على عامله لافادة قصر هذا الظلم على أنفسهم دون غيرهم أو دون ربهم الذي كفروا بنعمه ، كما قال تعالى في بني اسرائيل من سورة البقرة (٢ : ٥٤) وسورة الاعراف (٧ : ١٥٩ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

هذا هو المتبادر في هذا المقام من نفي ظلم الناس عن الله تعالى وقصره على أنفسهم ويحتمل أن يراد به انه تعالى لايظلمهم بعقابه لهم شيئا بأن يعاقبهم على غير ذنب أو يزيد على قدر الذنب ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بذنوبهم دون غيرهم ، على قاعدة (٦ : ١٦٤ ولا تكسب كل نفس إلا عليها) الآية فراجع تفسيرها مع ماهنا ، وحاسب نفسك ، وذكر غيرك ، ولا تجعلوا هذه الحكم البليغة حكاية للتسلية بهجو الكفار ، فانما هي حقائق هادية للموعظة والاستبصار

(٤٥) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

هذه الآية للتذكير بمقدار ظلم المشركين لانفسهم وخسارتهم لها في الآخرة بتكذيبهم النبي ﷺ وكفرهم بالقرآن ووعيده لهم وغرورهم بدنياهم الحقيرة مصداقا للآية التي قبلها ، قال

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي واذكر أيها الرسول لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم الله - وهذه قراءة حفص عن عاصم وقرأها الباقون (نحشرهم) بالنون أي نجمعهم بيعثهم

بعد موتهم ونسوقهم الى مواقف الحساب والجزاء ﴿ كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ أي كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة قليلة من النهار ربما يعرف فيها بعضهم بعضاً كأولي القربى والجيران ثم زالت ، فان الساعة يضرب بها المثل في قلة المدة . فالتشبيه بيان لحالهم في تذكرهم للدنيا . يعني ان هذه الحياة الدنيا التي غرتهم بمتاعها الحقير الزائل قصيرة ستزول بعذابهم أو موتهم ، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار لاتسع أكثر من التعارف القليل ، كما قال في آخر سورة الاحقاف (٤٦ : ٣٥ كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وفي سورة الروم (٣٠ : ٥٥ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وفي معناها قوله تعالى في آخر النازعات (٧٩) عن الساعة (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وفي آيات أخرى أن أهل الموقف يختلفون في هذا التقدير أي بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك اليوم فانه تعالى قال بعد آية سورة الروم (٥٦ وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث . فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون) وفي سورة المؤمنون (٢٣ : ١١٢ قال كم لبثتم في الارض عدد سنين ؟ ١١٣ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ١١٤ قال إن لبثتم إلا قليلا لو انكم كنتم تعلمون) وفي سورة طه يختلفون بين اليوم والعشر . وقيل إن المعنى انهم يتعارفون بينهم يوم يحشرون كأنهم لم يتفارقوا لقصر مدة الفراق ، وثم أقوال أخرى في التشبيه يبطلها ماأوردنا من الآيات في شواهده

﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ﴾ فلم يستعدوا له بالايمان وعمل الصالحات المزكية للنفس ، المرقية للروح ، بما تكون أهلا لكرامته ومثوبته ، ورضوانه الاكبر في جناته ، فآثروا عليها حياة الدنيا القصيرة الحقيرة ، المنغصة بالأكدار ، السريعة الزوال ، التي يقدرونها يوم الحشر بساعة من نهار . والجملة بيان مستأنف منه تعالى لخسران الذين كذبوا بلقاء الله من أهل مكة وغيرهم ، ولذلك ذكرهم بصفتهم المقتضية له وهي التكذيب وعطف عليه ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾

فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الفاني ، على النفيس الخالد الباقي، أو هي معطوفة على جملة « قد خسر » أي خسروا تجارتهم وأنفسهم، وما كانوا مهتدين الى أسباب النجاة والربح من الاعمال الصالحة التي هي ثمرات الايمان كما قال (٢ : ١٦ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) وقد تقدم ذكر الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآيات ٧ و ١١ و ١٥ من هذه السورة، وتقدم ذكر خسرانهم في سورة الانعام (٣١:٧)

---

(٤٦) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٧) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٩) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٥٠) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٥١) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (٥٢) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٣) وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٤) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٥) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٦) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

هذه الآيات تتمة الرد على المشركين في تكذيب مالم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله من العقاب الذي سبق في الآية ٣٩ وما بعدها

﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ هذه جملة شرطية زيدت (ما) في حرف الشرط (إن) ونون التوكيد في فعله فكان توكيده مزدوجا . والمراد بالآية تأكيد وقوع ما وعد الله هؤلاء المشركين من العقاب في الدنيا والآخرة بشرطه فيها لايتخلف منها شيء في جملتها ، سواء أرى الله النبي ﷺ بعض القسم الاول منه وشاهده، أم توفاه قبل إراءته إياه . فإبهام الله تعالى إياه للحكمة المقتضية له في أوائل البعثة من جهة قربه أو بعده، ورؤيته ﷺ له وعدم رؤيته، لا يفيدهم شيئا ، وستبين هذه الحكمة في إبهامه . فالمعنى وإن نرينك أيها الرسول بعض الذي نعدهم من العقاب في الدنيا فذاك — وفيه إشارة الى أنه سيريه بعضه لا كله، ﴿ أو نتوفينك ﴾ بقبضك إلينا قبل إراءتك إياه ﴿ فالينا مرجعهم ﴾ وعلينا حسابهم، حيث يكون القسم الثاني منه وهو عقاب الآخرة، ويجوز ان يجعل هذا جواب الشرط بقسميه، والمعنى فالينا وحدنا يرجع أمرهم في الحالين ﴿ ثم الله شهيد على مايفعلون ﴾ بعدك أو مطلقا فيجزيهم به على علم وشهادة حق ، والمراد أنه لافائدة لهم مما حكاه تعالى عنهم في تربصهم موت النبي ﷺ واستراحتهم من دعوته ونذره بموته كما تراه في سور الطور وآخر سورة طه ، فالعذاب واقع ماله من دافع

وقد ورد بمعنى هذه الآية قوله تعالى (٤٠ : ٧٧ فاصبر إن وعد الله حق فاما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون) ويليها آية بمعنى الآية التي تلي هذه ذكر فيها الرسل وكون آياتهم باذن الله لامن كسبهم، والقضاء على أقوامهم بالهلاك بعدها، ومنها قوله بعد آية في إرسال الرسل وكون آياتهم انما هي باذن الله ولكل أجل كتاب (١٣ : ٤٠ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ

وعلينا الحساب) وما بعدها في معنى السياق الذي هنا . وقوله (٤٣ : ٤١ فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون ٤٢ أو نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون) وقبلها (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين) وهو بمعنى ما قبل هذه أيضا .

(قد أبهم أمر عذاب الدنيا في كل هذه الآيات وآيات أخرى فلم يصرح بأنه سيقع بهم ما وقع بالأمم التي كذبت الرسل من قبلهم وهو عذاب الاستئصال ولكنه أشار اليه في قوله (٢٣ : ٩٣ قل رب إما تريني ما يوعدون ٩٤ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) أي كما هي سنتك في رسلك الاولين ، وقد أجاب الله دعاءه فقال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)

وحكمة هذا الابهام التخويف من جميع أنواع الوعيد مع علمه تعالى ان عذاب الاستئصال لن يقع على قومه ﷺ لان شرطه أن يجيئهم ما اقترحوا من آية كونية ويصروا بعده التكذيب ولن يقع ، ولكن في آية يونس هذه إشارة الى ان الله تعالى سيري رسوله بعد نزولها بعض الذي يعدهم لا كله، وقد أنجز له ذلك فأراه ما نزل بهم من القحط والمجاعة بدعائه عليهم، ونصره عليهم أعظم النصر في أول معركة هاجمه بها رؤساؤهم وصناديدهم وهي غزوة بدر وفي غيرها الى فتح عاصمتهم الكبرى أم القرى واكمال الدين ودخول الناس فيه أفواجا، وقد تقدم بيان ذلك كله في مواضعه

﴿ ولكل أمة رسول ﴾ أي انه تعالى جعل لكل أمة من الامم الخالية رسولا بعثه فيها في وقت الحاجة اليه يبين لهم أصول دينه الثلاث : الايمان بالله، وباليوم الآخر ، والعمل الصالح المناسب لحال زمنهم ﴿ فاذا جاء رسولهم ﴾ وقامت الحجة عليهم ﴿ قضي بينهم بالقسط ﴾ أي قضى الله بينه وبينهم بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ في قضائه تعالى كما تقدم وسيأتي تأكيده قريبا .

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أي ويقول كفار قريش للنبي ومن اتبعه من المؤمنين : متى يقع هذا الوعد الذي تعدوننا به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في قولكم ان

الله تعالى سينتقم لكم منا وينصركم علينا، أي في مثل قوله (١٩: ٧٥ حتى اذا رأوا مايوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جنداً) وقوله (١٩: ٧٥ حتى اذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً * قل إن أدري أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربي أمداً * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) الخ

وههنا لقن الله رسوله ﷺ الجواب بقوله ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا ﴾ أي إنني بشر رسول لا أملك لنفسي فضلا عن غيرها شيئاً من التصرف في الضر فأدفعه عنها ولا النفع فأجلبه لها من غير طريق الاسباب التي يقدر غيري عليها، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين، ولا هبة النصر للمؤمنين ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ أي لكن ماشاء الله من ذلك كان متى شاء لاشأن لي فيه لأنه خاص بالربوبية دون الرسالة التي وظيفتها التبليغ لا التكوين. هكذا قال جمهور المفسرين ان الاستثناء هنا منقطع وله أمثال تقدم بعضها كقوله تعالى وهو من أظهرها الصريح في هذا المقام (٧: ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) والاختلاف بين الآيتين في تقديم ذكر الضر على النفع وتأخيره لاختلاف المقام، فقد قدم الضر في آية يونس لأنها جواب للمشركين عن ميعاد العذاب الذي أنذروا به، وهو من الضر، وقدم النفع في آية الاعراف لان المقام بيان الحقيقة في نفسها، وهو ان الرسول لا يملك لنفسه شيئاً من التصرف في الكون بغير الاسباب العامة فضلا عن ملكه لغيره، والمناسب في هذا تقديم النفع لأنه هو المقصود بالذات من تصرف الانسان وسعيه لنفسه. وقيل ان الاستثناء متصل وحينئذ يكون المنفي المستثنى منه عاما لما يملكه الانسان بالاسباب العادية فيكون المعنى إلا ماشاء الله تعالى ان أملكه بما أعطاني من الكسب الاختياري مع تيسير أسبابه لي، وأما الآيات الخارقة للعادة فهي لله وحده، لا مما يملكه رسله

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال بقوله ﴿ لكل أمة أجل ﴾ لبقائها وهلاكها علمه الله وقدره لها لا يعلمه ولا يقدر عليه غيره ﴿ اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة

ولا يستقدمون ﴾ أي فلا يملك رسولهم من دونه تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له وإن قلت ، ولا أن يطلب ذلك منه تعالى، وهو معنى ما تدل عليه السين والتاء في الاصل ـ وقد حققنا معنى هذا النص في آية سورة الاعراف بلفظه (٧ : ٣٤) فاستغرق أربع ورقات من جزء التفسير الثامن فليراجعه من شاء ، إلا أنه قال هنالك (فاذا جاء أجلهم لا يستاخرون) الخ وقال هنا (اذا جاء أجلهم فلا يستاخرون) الخ والفرق بينهما ان ماهنا أبلغ في نفي تاخير الوعيد لانه تفنيد لاستعجالهم به وذلك أنه جعل الجملة الشرطية وصفا للأجل مرتبطا به مباشرة لايتخلف عنه، وماهنالك إخبار بآجال الامم مبتدأ وما بعده تفريع عليه، فهو لايدل على لزومه له بلا مهلة كالذي هنا. وقد تكرر هذا السؤال من المشركين مع جوابه في سور أخرى وأشبهه بما هنا سياق سورة النمل وأجيب فيها بقوله (٢٧ . ٧٢ قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) وهو من ردفه اذا لحقه وتبعه ، وعدي باللام لتأكيده أو تضمينه معنى يناسبه

وقد بلغ من جهل الخرافيين من المسلمين بتوحيد الله أن مثل هذه النصوص من آيات التوحيد لم تصد الجاهلين به منهم عن دعوى قدرة الانبياء والصالحين حتى الميتين منهم على كل شيء من التصرف في نفعهم وضرهم مما لم يجعله الله تعالى من الكسب المقدور لهم بمقتضى سننه في الاسباب بل يعتقدون أن منهم من يتصرفون في الكون كله ، وكالذين يسمونهم الاقطاب الاربعة . وان بعض كبار علماء الازهر في هذا العصر يكتب هذا حتى في مجلة الازهر الرسمية (نور الاسلام) فيفتي بجواز دعاء غير الله من الموتى والاستغاثة بهم في كل ما يعجزون عنه من جلب نفع ودفع ضر ،وألف بعضهم كتابا في إثبات ذلك وكون الميتين من الصالحين ينفعون ويضرون بانفسهم ، ويخرجون من قبورهم فيقضون حوائج من يدعونهم ويستغيثون بهم . قال في فتح البيان بعد نقله القول الاول في الاستثناء عن أئمة المفسرين وترجيحه مانصه :

«وفي هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التي لايقدر على دفعها إلا الله سبحانه.

وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ مالا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه ، فان هـذا مقام رب العالمين ، الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع المخلوقين ، ورزقهم وأحياهم ويميتهم ، فكيف يطلب من نبي من الانبياء أو ملك من الملائكة او صالح من الصالحين ماهو عاجز عنه غير قادر عليه ؟ ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع ؟ وحسبك بما في هذه الآية من موعظة فان هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بان يقول لعباده (لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا) فكيف يملكه لغيره ؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لاتبلغ الى منزلته لنفسه ، فضلا عن أن يملكه لغيره ؟

«فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج مالا يقدر عليه إلا الله عز وجل؟ كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ، ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله الا الله ، ومدلول (قل هو الله أحد) « وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع الى الجاهلية الاولى، بل الى ماهو أشد منها . فان أولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت ، الضار النافع، وانما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم اليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال ، وكفاك من شر سماعه ، والله ناصر دينه، ومطهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر . ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقر به عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الامة المباركة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) انا لله وانا اليه راجعون » اه

﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهاراً ﴾ أي قل لهم أيها الرسول أخبروني عن حالكم وما يمكنكم فعله ان أتاكم عذابه الذي تستعجلون به في وقت مبيتكم في الليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم أو أمور معاشكم بالنهار وهو لا يعدوهما كما تقدم في الآيات (٤ و٩٧ و٩٨ من سورة الاعراف ٧)

﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ أي شيء أو أي نوع يستعجل منه المجرمون

المكذبون الآن؟ أعذاب الدنيا أم قيام الساعة؟ أيا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة. وقيل ان المعنى ماذا يستعجل منه المجرمون منكم إن أتاكم؟ أي ان جملة الاستفهام جواب للشرط فيما قبلها، وفيه بحث للنحاة الذين أوجبوا اقتران مثل هذا الجواب بالفاء وخالفهم غيرهم لا نعرض له ، وقد تقدم في سورة الانعام (٦ : ٤٧ قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟) وتقدم في تفسيرها وتفسير ماقبلها ان الاستفهام في (أرأيتم) و (أرأيتكم) مستعمل في اللغة بمعنى أخبروني عن حالكم وما يكون من عملكم ان أتاكم ذلك ؟

﴿ أثم اذا ماوقع آمنتم به ﴾ قرأ الجمهور (ثم) بالضم وهو حرف عطف يدل على الترتيب والتأخر والتراخي ، وقريء بالفتح وهو اسم إشارة بمعنى هنالك. قال ابن جرير الطبري ومعنى قوله (أثم) في هذا الموضع أهنالك؟ وليس «ثم» ههنا التي تأتي بمعنى العطف اه ولم يضبطها بفتح الثاء فظاهر قوله ان المضمومة تأتي ظرفا أيضاً وهذا لم يرو عن أحد من العرب، بل قال ابن هشام في المغني وقد نقله عنه: وهذا وهم اشتبه عليه ثم المضمومة الثاء بالمفتوحتها اه

وأما على قراءة الجمهور فهذا استفهام آخر معطوف على فعل مقدر بعد الهمزة علم مما قبله من إنكار استعجال مجرميهم بالعذاب، كما يقدر مثله بعد حرف الاستفهام الداخل في مثل قوله (أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم ؟) وقوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ؟) وتقدير الكلام ، أيستعجل بالعذاب مجرموكم الذين هم أحق بالخوف منه بدلا من الايمان الذي يدفعه عنهم وعنكم ، ثم اذا وقع بالفعل آمنتم به إذ لا ينفع الايمان ، لانه صار ضروريا بالمشاهدة والعيان ، لا تصديقا للرسول عليه السلام ، وقيل لكم من قبل الله تعالى تقريعاً وتوبيخاً ﴿ آلآن ﴾ آمنتم به اضطراراً ﴿ وقد كنتم به تستعجلون ﴾ تكذيبا به واستكباراً ؟ وقرأ نافع (ألان) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، والجملة حالية ، والاستعجال يتضمن المبالغة في التكذيب المقابل للايمان، وسيأتي في هذه السورة إيمان فرعون عند ادراك الغرق إياه وأنه يقال له (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) ...

﴿ ثم قيل للذين ظلموا ﴾ (قيل) هذه معطوفة على قيل المقدرة قبل (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) أي ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد ، وما يترتب عليه من الفساد والضلال البعيد ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ الخلد كالخلود مصدر خلد الشيء اذا بقي على حالة واحدة لا يتغير ، وخلد الشخص في المكان اذا طال مكثه فيه، لا يرحل ولا هو بصدد التحول عنه. وظاهر اضافة العذاب الى الخلد أن المراد به البقاء على حالة واحدة مؤلمة ، ويحتمل إرادة العذاب الخالد الدائم وهو الموافق للآيات الكثيرة المطلقة في الاكثر والمقيدة بمشيئة الله تعالى في سورة الانعام وقد تقدم تفسيرها وفي سورة هود وسيأتي ﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبونه باختياركم من الكفر والظلم والفساد في الارض ، والعزم على الثبات عليه وعدم التحول عنه؛ وليس فيه شيء من الظلم ، لأنه أثر لازم لتدسية النفس وافسادها بالظلم ، حتى لم تعد أهلا لجوار الرب عز وجل وليس عذابا أنفا من خارجها ، وتقدم بيانه في تفسير قوله تعالى (٦ : ١٣٩ سيجزيهم وصفهم)

﴿ ويستنبؤنك أحق هو ؟ ﴾ النبأ الخبر المهم ذو الفائدة العظيمة والاستنباء طلبه، وهذا إخبار عن بعض الكفار والمكذبين فانهم لم يكونوا على يقين من تكذيبهم وانما كانوا ظانين مستبعدين، بين معاندين ومقلدين، وقد تقدم في هذا السياق قوله تعالى (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا) والمعنى ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا العذاب الذي تعدهم به في الدنيا والآخرة أحق هو سيقع بالفعل ؟ أم هو إرهاب وتخويف ؟ ﴿ قل إي وربي انه لحق ﴾ إي بكسر الهمزة وسكون الياء الخفيفة حرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، وانما يستعمل مع القسم ، أي نعم أقسم لكم بربي انه لحق واقع ، كما قال في أول سورة الطور بعد القسم (ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع) وقد أكده هنا بالقسم وبان مع الجملة الاسمية ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾

لله تعالى عن إنزاله بكم ، ولا بفائتيه هربا منه ، وقد علم مؤمنوا الجن ما جهلتم إذ قالوا كما حكى الله عنهم (وأنا ظننا ان لن نعجز الله في الارض ولن نعجزه هربا)

وقد استشكل بعض المفسرين السؤال باستبعاد أن يكون الاستفهام حقيقياً من المكذبين ، والجواب بزعمهم ان تأكيده بالقسم وغيره من المؤكدات اللفظية لايقنع السائلين ، ومن عرف أخلاق العرب في زمن البعثة لم يستشكل السؤال إلا أن يكون السائلون من المعاندين للرسول ﷺ فحينئذ يكون الاستفهام للتهكم والاستهزاء ، أو كما قيل . انما سألوا أهو جد أم هزل ، فأرادوا من الحق لازمه وهو الجد لامقابل الباطل ، والمعروف من أخلاق العرب في ذلك العهد أنه كان يقل فيهم الكذب امزة أنفسهم ، وعدم خضوعهم لرياسة استبدادية تضطرهم إليه ، وكانوا يهابون الايمان الباطلة ويخافونها ، ومن المنقول عنهم ان الايمان الفاجرة تدع الديار بلاقع ، وناهيك بما اشتهر به النبي ﷺ منذ صغره من الصدق والامانة حتى لقبوه بالامين ، وقد ثبت في الاحاديث الصحيحة أن بعضهم كان يسأله عن نبوته وعن الشرائع ويستحلفه فاذا حلف اطمأن لصدقه واتبعه ، وإن صدق عرب الجاهلية ليقل مثله في رجال الدين وغيرهم من أهل هذا العصر حتى المسلمين منهم

روى احمد والشيخان وأصحاب السنن الثلاثة واللفظ للبخاري عن أنس قال بينا نحن مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال : أيكم محمد ؟ قلنا هذا الرجل الابيض المتكيء فقال : ابن عبد المطلب فقال النبي ﷺ « قد أجبتك » فقال إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك ، قال « سل عما بدا لك » فقال أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك الى الناس كلهم ؟ قال « اللهم نعم » قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال « اللهم نعم » قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال « اللهم نعم » قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ قال « اللهم نعم » قال آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائي قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر . ولفظ مسلم عنه : قال أنس نهينا في القرآن أن نسأل رسول الله

ﷺ عن شيء[1] فكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد ، أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال « صدق » قال فمن خلق السماء ؟ قال « الله » قال فمن خلق الارض ؟ قال « الله » قال فمن نصب هذه الجبال فجعل فيها ما جعل ؟ قال « الله » قال فبالذي خلق السماء وخلق الارض ونصب الجبال آلله أرسلك ؟ قال « نعم » (ثم سأله بالذي أرسله عن كل من الصلوات والزكاة وصيام رمضان والحج فأجاب بنعم) ثم ولى وقال ، والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن ، فقال النبي ﷺ « لئن صدق ليدخلن الجنة »

وزاد الامام احمد انه قال له أيضاً : الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الانداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال « اللهم نعم » وأنه كان أشعر ذا غديرتين ، وان النبي ﷺ قال « إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة » وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال بئست اللات والعزى ، قالوا مه يا ضمام ، اتق البرص والجذام ، اتق الجنون قال ويلكم انهما والله ما يضران ولا ينفعان ، إن الله تعالى قد بعث إليكم رسولا وأنزل كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد ان محمداً عبده ورسوله ، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما

وأقول ان فائدة السؤال عمن خلق السموات والارض والجبال وما فيها ثم ذكره في القسم ان استحضار ذلك فيه يكون أحرى أن يلتزم في الجواب الصدق وتعظيم القسم والخوف من عاقبة الحنث ، وقد خفي هذا كله على المفسرين لانهم اعتادوا إثبات العقائد الدينية بالادلة النظرية الجدلية التي وضعت للجاحدين المجادلين بالباطل ، وجهل هذه الحقائق أعداء الاسلام من الافرنج ولا سيما السياسيين رجال

(١) يعني في قوله تعالى (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) أي لئلا تكثر التكاليف عليهم وراجع تفسيرها في أواخر تفسير المائدة من الجزء السادس

الكنيسة الكاثوليكية ودعاة التنصير البروتستنتي المطبوعين على الكذب والكسب، والاخذ بقول رؤسائهم «ان الغاية تبرر الواسطة» يعنون أن اقتراف الكذب وسائر الرذائل لاجل مصلحة الكنيسة فضيلة - جهل هؤلاء أن عباد الاصنام في الجاهلية كانوا أشد منهم احتراما للصدق - فضلا عن الاسلام وكتابه ونبيه، فأباحوا لأنفسهم من افتراء الكذب على الله، وكتابه وخاتم رسله، ما لم يخطر مثله في بال الشيطان قبلهم فيوسوس به لغيرهم

لقد كذبوا على الاسلام كذبا تزول الشم منه مزلزلات

اما المسلمون فان الله يقول في كتابه (١٦ : ١٥ انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله واولئك هم الكاذبون) والنبي ﷺ يقول في هديه «يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب» رواه البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمرو رضي الله عنهما

﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الارض لافتدت به ﴾ أي لو أن لكل نفس تلبست بهذا الظلم جميع ما في الارض من أنواع الملك والزينة وصنوف النعيم وأمكنها أن تفتدي به أي تجعله فداء لها من ذلك العذاب الذي قيل لهم ذق ذوقوه ينقذها منه بذلها له، لافتدت به كله لا تدخر منه شيئا ﴿ وأسروا الندامة ﴾ إسرار الشيء إخفاؤه وكتمانه، وإسرار الحديث والكلام خفض الصوت به، فهو ضد اعلانه والجهر به ومنه (وأسروا قولكم أو اجهروا به * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) واستعمل بمعنى الجهر مطلقا فهو ضد وأنكره بعضهم، والندم والندامة ما يجده الانسان في نفسه من الالم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره، وقد يجهر به بالكلام كقوله «ياحسرتنا على ما فرطت» أو بالتوبة والاستغفار، وقد يخفيه ويكتمه لعدم الفائدة من اعلانه أو اتقاء للشماتة او الاهانة به، أي وأسر أولئك الذين ظلموا ندامتهم وحسرتهم فيما بينهم وبين ربهم أو كتموها في قلوبهم ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي رأوا مباديه عيانا بأبصارهم لما برزت الجحيم وأيقنوا أنهم مواقعوها لا مصرف لهم عنها، وقد يعبر برؤيته عن وقوعه والظاهر الاول لقوله

﴿ وقضي بينهم بالقسط ﴾ أي وقضى الله بينهم وبين خصومهم بالعدل والحق ، فاذا أريد بالظلم الكفر والتكذيب وما يلزمه من الايذاء فخصومهم الرسل والمؤمنون بهم ، وكذا من أضلوهم وظلموهم من المرءوسين والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالكفر ويصدونهم عن الايمان وهو ظاهر السياق هنا وفي سورة سبأ بعد حكاية مجادلة الظالمين والمظلومين يوم القيامة (٣٤: ٣٣ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) وإن أريد بالظلم ما يعم ظلمهم للناس في الاحكام وهضم الحقوق كان كل مظلوم خصما لظالمه

﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يظلمهم الله كما ظلموا أنفسهم وظلموا أتباعهم ومقلديهم ، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم والآيات في ندم الظالمين يوم القيامة معروفة كقوله في آخر سورة النبأ (٧٨ انا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) وقوله (٢٥ : ٢٧ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ٢٨ ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) وغير ذلك

ثم قفى على ذلك بالدليل على قدرته على انفاذ حكمه وانجاز وعده وكون هؤلاء الظالمين لا يعجزونه ، ولا يستطيعون الافتداء من عذابه ، فقال ﴿ ألا إن لله ما في السموات والارض ﴾ قلنا مراراً ان السموات والارض عبارة عن جميع العالم ، وهو تعالى مالك السموات والارض وملكهما ، وله كل من فيهما من العقلاء ، وما فيهما من غير العقلاء ، وقد نطقت الآيات بهذا كله ولكل مقام مقال ، فهنا غلب غير العقلاء بمناسبة ما في الآية السابقة من الاشارة الى غرور الكافرين والظالمين بما كانوا يتمتعون به ، وتعذر الافتداء بشيء منه ، وسيأتي تغليب العقلاء في الآية ٦٦ من هذه السورة لاقتضاء المناسبة له . وصدر الجملة بحرف التنبيه ﴿ ألا ﴾ الذي يفتتح به الكلام لتنبيه الغافلين عن هذه الحقيقة وإن كانوا يعرفونها لكثرة ذهول الناس عن تذكر امثالها ، والمعنى ليتذكر الناسي وليتنبه الغافل وليعلم الجاهل ان لله وحده ما في العوالم العلوية وعالم الارض يتصرف فيها حيث يشاء ، فيعطي من

يشاء ويمنع من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء ،في يوم البعث والجزاء ﴿ ألا ان وعد الله حق ﴾ أعاد فيه حرف التنبيه تأكيداً وتذكيراً لتمييزه بهذا التنبيه عما سبقه لانه المقصود هنا بذاته وانما ذكر قبله للاستدلال عليه ، أي كل ماوعد به على لسان رسله حق واقع لاريب فيه ، لأنه وعد المالك القادر على انجاز ما وعد لايعجزه منه شيء

﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ يعني بأكثرهم الكفار منكري البعث والجزاء ، أي لايعلمون أمر الآخرة لامن طريق النظر والاستدلال ،ولا من طريق الايمان بما جاء به الرسل عليهم السلام

﴿ هو يحيي ويميت ﴾ بقدرته كما يدل عليه النظر والاستدلال وقد بسطناه في تفسير الآيتين ٣١ و ٣٤ ﴿ واليه ترجعون ﴾ عندما يحييكم بعدموتكم ويحشركم ليحاسبكم ويجزيكم باعمالكم فهذه الآية بيان مستأنف لما قبله بالايجاز ، وجملة هذه الآيات خاتمة هذا السياق .

(٥٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٨) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

هاتان الآيتان في موضوع تشريع القرآن العملي جاء بعد بيان عقائده الثلاث (التوحيد والرسالة والبعث) وتأييدها بالاستدلال على كونه من الله تعالى ، وعلى صدق وعده ووعيده، والرد على مكذبيه ، وقد اجمل في الآية الاولى جميع مقاصد هذا التشريع واصلاحه للناس بما يظهر به للعاقل انه حق وخير وصلاح بذاته لايصح لعاقل ان يماري فيه، و يحتاج للاستدلال عليه فقال

﴿ ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى

ورحمة للمؤمنين ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون اليه من موعظة حسنة لاصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة ، وحكمة بالغة لاصلاح خفايا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنة، وهداية واضحة للصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، ورحمة خاصة للمؤمنين، هي شجنة من رحمة رب العالمين، العامة للخلق أجمعين ، يتراحمون بها فيا بينهم، فتكمل بها رحمته تعالى لهم، ورحمته للعالمين برسوله اليهم وبهم، وقد عرف هذا من تاريخهم أشهر فلاسفة التاريخ من الافرنج فقال «ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » فكأن الله تعالى يقول للناس، بعد بيان هذه المقاصد الاربعة للقرآن . فما بالكم أيها الناس تكذبون بما لم تحيطوا به علما من أخبار هذا الكتاب ، التي هي من علم الغيب عن المآل والمآب، ولا تفكرون في آدابه ومواعظه، وأحكامه وحكمه، وهداية نواميسه وسننه ، وما فيها من المنافع والمصالح ، التي لا يماري فيها عالم ولا يكابر فيها عاقل؟ حتى ان أشد أعداء الرسول إيذاء له وصدا عن دعوته في أول ظهورها لم يستطيعوا الطعن على مادعا اليه من الفضائل والخير والبر، وما نهى عنه من الرذائل والشرور والفجور، كأبي سفيان عند ماسأله هرقل قيصر الروم، وعمرو بن العاص عند ماسأله أصحمة النجاشي الحبشة، فان كان ذلك قد خفي على بعض الجاحدين والمقلدين لهم من المشركين قبل تعميم نشر القرآن فيهم، وقبل ظهور ما كان له من التأثير العظيم بعد انتشار الاسلام في العرب، ومن الاصلاح الديني والمدني في شعوب العجم، أفليس من العجب المجاب أن يماري به أحد بعد ذلك ويصدق مايفتريه عليه دعاة الكنيسة ورجال السياسة من الافرنج وتلاميذهم وهم أكذب البشر؟

أجملت الآية الحكيمة هذا الاصلاح القرآني لأنفس البشر في أربع قضايا أو مسائل نكرن في اللفظ لتعظيم أمرهن ، أو لبيان انهن نوع خاص لم يعهد الناس مثلهن ، في كمالهن المعنوي وبيانهن اللفظي ، وقوله (من ربكم) للتذكير بما يزيدها تعظيما ، ووجوب الاتعاظ بها إيمانا وتسليما ، لأنها من مالك أمر الناس ومربيهم بفضله ورحمته ، وعلمه وحكمته

(الاولى الموعظة الحسنة) وهي اسم من الوعظ أي الوصية بالحق والخير، واجتناب

الباطل والشر ، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب ، فتبعث على الفعل والترك ، وقد تقدم في حقوق النساء من سورة البقرة (٢ : ٢٣١ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) الآية ، وفي التي بعدها (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وتقدم في سورة آل عمران بعد النهي عن أكل الربا والامر بطاعة الله ورسوله والترغيب في الانفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس ، وما أعده الله على ذلك من الجزاء (٣ : ١٣٦ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ويليه الكلام في الجهاد وغزوة أحد ، وفي سورة النساء (٤ : ٥٨ إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظكم به) الآية ، وتقدم غير ذلك من أمثلة الوعظ وسيأتي غيره مما يفسر مراده تعالى من موعظته الربانية ، فهل يمكن أن يتمارى عاقلان في حسنها ومنفعتها للعباد في أعمالهم وأحكامهم ؟ كلا انها مما يتوقف عليه صلاح العباد في كل زمان ومكان

(الثانية شفاء ما في الصدور) أي شفاء جميع ما في القلوب من أدواء الشرك والكفر ، وسائر الامراض النفسية التي يشعر صاحبها ذو الضمير الحي بضيق الصدر ، من شك في الايمان ، ومخالفة للوجدان ، و اضمار للحقد والحسد والبغي والعدوان ، وحب للباطل والظلم والشر ، وبغض للحق والعدل والخير

قال الراغب : قال بعض الحكماء حيثما ذكر الله القلب فإشارة إلى العقل والعلم نحو (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وحيثما ذكر الصدر فاشارة الى ذلك وإلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها ، وقوله (رب اشرح لي صدري) فسؤال لاصلاح قواه ، وكذلك قوله (ويشف صدور قوم مؤمنين) اشارة الى اشتفائهم . وقوله (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) أي العقول التي هي مندسة فيما بين سائر القوى وليست مهتدية والله أعلم بذلك اهـ والتحقيق أن الصدر يطلق مجازاً على القلب الحسي الذي فيه وعلاقته ظاهرة

وعلى القلب المعنوي الذي هو للنفس كالقلب الحسي للبدن لانه لبها ، ومركز شعور مداركها وانفعالاتها دون الدماغ فان النفس لا تشعر بما ينطبع فيه من المدركات من انشراح وبسط، ولا حرج وضيق وقبض، فجميع الادراكات العلمية والوجدانية توصف بها القلوب حقيقة والصدور مجازاً ، وتكون فاعلة ومفعولة وصفات للأفعال العاملة فيهما . وأما العقل في اللغة فهو الحكم الصحيح في بعض الادراكات ولوازمها من حسن وقبح وصلاح وفساد ، ونفع وضر ، ومركزه الدماغ قطعاً . فأمراض الصدور والقلوب تشمل الجهل وسوء الظن ، والشك في الايمان والنفاق والحقد والضغن والحسد وسوء النية وخبث الطوية، وفساد السريرة، وغير ذلك مما تقدم آنفاً، والشواهد على هذا في القرآن كثيرة

وذهب بعضهم إلى أن الشفاء في الآية يشمل شفاء الامراض البدنية واستدلوا بما أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن ابي سعيد الخدري (رض) قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني أشتكي صدري فقال « اقرأ القرآن يقول الله (شفاء لما في الصدور) وفيه أن ضيق الصدر في الغالب ألم نفسي لا بدني قد يكون سببه دينياً وقد يكون دنيويا كالخوف والحاجة ، وقراءة المؤمن للقرآن تنفع في كل منهما ومن الاول قوله (٦ .١٢٥ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء) وقوله في آخر سورة الحجر (١٥ .٩٧ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) والتسبيح بحمد الله والسجود له وعبادته بالصلاة وتلاوة القرآن أعظم أسباب انشراح الصدر، كما قال ٣٩ . ٢٢ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) الآية

واستدلوا أيضاً بما أخرجه البيهقي في شعب الايمان عن واثلة بن الاسقع (رض) أن رجلا شكا إلى النبي ﷺ وجع حلقه قال « عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، والعسل شفاء من كل داء » وهو على ضعفه لا يدل على ماقيل إذ معناه اقرأ القرآن، تعلم منه مايفيدك ، إذ فيه أن القرآن شفاء لامراض الصدور ، والعسل شفاء لأمراض البدن ، فهو كوصفه ﷺ العسل لمن شكا له

استطلاق بطن ابن أخيه في الحديث الصحيح . وقد ثبت في الطب الحديث أن العسل مطهر ومضاد للفساد ، واستطلاق البطن يكون من فساد في الامعاء ، وكذا وجع الحلق بالتهاب اللوزتين ونحوه ، والعسل مطهر لكل منهما ، وقد روى أبو الشيخ عن الحسن البصري أنه قال ان الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم . وقال بعض المفسرين ان تنكير الشفاء في آية العسل يدل على الخصوص لا العموم . على أن الرقية بالفاتحة وغيرها قد تفيد في شفاء بعض الامراض ولا سيما اذا كان الراقي قوي الايمان والمرقي حسن الاعتقاد ، وليس هذا مما تدل عليه الآية

(الثالثة الهدى) والمراد به الديني المنقذ من الضلال في الاعتقاد والعمل ببيان الحق فيهما بالبرهان الاول وبيان الحكم والمصالح في الآخر ، وهو ما فصلناه تفصيلا في هذا التفسير وبينا أنواعه في مقاصد القرآن من مباحث الوحي في أول تفسير هذه السورة بأنواعها الدينية والعقلية والاجتماعية ، وتقدم الكلام على معناه اللغوي وأنواعه في تفسير الفاتحة وأول سورة البقرة .

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهي ماتثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة وهي صفة كمال من آثارها اغاثة الملهوف ، وبذل المعروف ، وكف الظلم ، ومنع التعدي والبغي ، وغير ذلك من أعمال الخير والبر ، ومقاومة الشر ، وقد وصف الله المؤمنين بقوله (رحماء بينهم) وبقوله (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)

وهذه الصفات الاربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالموعظة التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية ، وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها ، والشفاء تخلية يتبعها طلب التحلية بالصحة الكاملة ، والعافية التامة ، وهو الهدى ، ومن ثمراته هذه الرحمة التي لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين ، ولا يحرمها إلا الكافرون الماديون ، حتى قال بعضهم إنها ضعف في القلب ، يجعل صاحبه كالمضطر إلى الاحسان والعطف ، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة ، وقسوة القلب وفلسفة الكفر ، فلقد كان أشجع الناس وأقوام بدنا وقلبا ، أرحم الناس وأشدهم عطفاً ، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين ، الذي وصفه

ربه بما وصف به نفسه من قوله (بالمؤمنين رؤف رحيم) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكذلك كان أصحابه (رض) حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمر ابن الخطاب [رض] صار من أرحم الناس وسيرته في ذلك معروفة

وقد قال ﷺ « لاتنزع الرحمة الا من شقي » رواه ابو داود والترمذي. واللفظ له عن ابي هريرة (رض) وقد صح عنه ﷺ انه كان اذا سمع وهو في الصلاة بكاء طفل تجوز في صلاته ، اي اختصر وخفف رحمة به وبأمه، وروى ابن اسحاق ان بلالا [رض] مرّ بصفية وبابنة عم لها على قتلى قومها اليهود بعد انتهاء غزوة قريظة فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب وهي تصيح وتبكي فقال ﷺ له « أنزعت الرحمة من قلبك حتى مررت بالمرأتين على قتلاهما » وجاء اعرابي إليه ﷺ فقال انكم تقبلون أولادكم وما نقبلهم فقال « أو املك لك ان نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة [رض]

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطير والحشرات وطالما أوصى بهم ولا سيما صغارها وامهاتها . جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يارسول الله اني لما رأيتك أقبلت فررت بغيظة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي فجاءت امهن فاستدارت على رأسي وكشفت لها عنهن فوقعت عليهن فلففتها معهن بكسائي فهن أولاء معي، فقال « ضعهن » (قال) ففعلت فأبت أمهن إلا لزومهن فقال ﷺ « أتعجبون لرحمة ام الافراخ بفراخها ؟ قالوا نعم ، قال « والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الافراخ بفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن ، وأمهن معهن » فرجع بهن . رواه ابو داود عن ابي هريرة [رض] وروى مالك والبخاري ومسلم وابو داود من حديثه مرفوعا حديثين خلاصتهما ان الله غفر لرجل ولا مرأة بغي لان كلا منهما رأى كلبا قد اشتد به العطش فرحمه واخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه . قالوا له يارسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال « في كل كبد رطبة أجر » ورواه مالك واحمد عن غيره بلفظ « في كل ذات كبد حرى أجر »

وقال ﷺ « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم

من في السماء » رواه الترمذي وابو داود من حديث عبد الله بن عمرو [رض] ورويناه مسلسلا بالاولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد أبي المحاسن القاوقجي. وقال ﷺ « ان لله مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها » وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » - وفي رواية - ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل ماعند الله من العذاب لم يأمن من النار » رواه البخاري ومسلم والترمذي، والله تعالى يقول (١٥، ٤٥ نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم، وان عذابي هو العذاب الاليم) ويقول (انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون) ويقول (٧ ٩٨ أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) وما دام المؤمن حياً فالواجب عليه أن يخاف الله خوفا يرهبه ويزجره عن معاصيه، وأن يرجوه رجاء يرغبه في ثوابه وما يرضيه، وماعند الله مجهول لنا، وما أحسن قول أبي الحسن الشاذلي قدس الله سره « وقد أبهمت الامر علينا لنرجو ونخاف، فآمن خوفنا، ولا تخيب رجاءنا » اللهم آمين

خاطب الله تعالى بما تقدم كله أمة الدعوة المحمدية وهم جميع الناس فوعظة القرآن وما فيه من شفاء من أمراض الكفر والنفاق والرذائل، وهداه الى الحق والفضائل موجه الى الجميع، وخص المؤمنين بما تثمره الثلاث من الرحمة لانهم هم الذين ينتفعون بها، ثم خاطب رسوله ﷺ بأن يبلغ هؤلاء المؤمنين أنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الايمان والاسلام وبهذه الرحمة الخاصة بهم لاستجماعهم كل ماذكر قبلها من مقاصد تشريعه فقال:

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فضل الله على جميع عباده عظيم وهو على المؤمنين منهم أعظم، ورحمته العامة لهم وبهم واسعة، ورحمته الخاصة بالمؤمنين أوسع، وبكل من النوعين نطق القرآن، وقد من تعالى عليهم بالجمع لهم بين الفضل والرحمة في آيات، وبكل منها في آيات، وقال بعد الجمع بينهما في آيتين من سورة النور (٢٤. ٢١ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ماز كا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) وان دخول الباء على كل من الفضل

والرحمة هنا يدل على استقلال كل منهما بالفرح به، فهو يرد ماروي عن مجاهد من ان المراد بهما واحد وهو القرآن، ويرده أيضاً ماروي من المأثور في تفسير كل منهما بمعنى، ومنه مارواه أبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس مرفوعا «فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله» وروي عن البراء وابي سعيد الخدري موقوفا. وعن ابن عباس روايتان (احداهما) ان فضل الله القرآن ورحمته الاسلام (والثانية) ان الفضل العلم والرحمة محمد ﷺ وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد في الرواية الثانية عنه، فضل الله الايمان ورحمته القرآن، وكل هذه المعاني صحيحة في نفسها لافي روايتها وأظهرها في الآية وهو المناسب لما قبلها، والجامع لمعاني الروايات كلها، ان فضل الله توفيقه إياهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والشفاء والهدى التي امتاز بها القرآن، ورحمته ثمرتها التي فضلوا بها جميع الناس فكانوا أرحمهم، بعد أن كانوا أعدلهم وأبرهم بهم، فقد أمرهم هذا القرآن بالبر والعدل واقامة القسط في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأمرهم بالرحمة حتى في المحاربين لهم بقدر مايدفع شرهم كما فصلناه في المقصد الثامن من مقاصد القرآن في مباحث الوحي، ولولا مراعاة هذا التناسب لقلت ان المراد بفضله تعالى على هذه الامة هو قوله تعالى (٢: ١٤٣ وكذلك جعلناكم أمة وسطا) الآية، وقوله (٣: ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية ولكن ما قلته يدخل في معناه ويوافقه ولكل مقام مقال

والفرح كالسرور انفعال نفسي بنعمة حسية أو معنوية يلذ القلب ويشرح الصدر، وضدهما الاسى والحزن، وهما من الوجدان الطبيعي لايمدحان ولا يذمان لذاتهما، بل حكمهما حكم سببهما أو أثرهما في النفس والعمل، خلافا لبعض الناس من الصوفية وغيرهم فيهما، فقد أمر الله تعالى هنا بالفرح بفضله ورحمته، ومدح المؤمنين بالفرح في قوله (٣٠: ٤ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وهذا فرح بأمر ديني دنيوي ثم قال فيها (٣٦ واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وقال في أهل الكتاب الذين يؤمنون به ﷺ ويهتدون بالقرآن (١٣: ٣٦ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) الآية.

وذم الفرح بالباطل وفرح البطر والغرور بالمال ومتاع الدنيا وشهواتها في عدة آيات معروفة . وجعل الاعتدال بين الفرح والاسى والحزن من صفات المؤمنين فقال بعد ذكر تربيتهم بالمصائب المقدرة في كتاب الله (٥٧ . ٢٣ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لايحب كل مختال فخور)وتقدم تحقيق الكلام في الحزن في تفسير سورة براءة (١٠ : ٢٤٠ ص ٤٢٦ ج ١٠)

والتعبير في الاية في غاية البلاغة لما فيها من التأكيد والمبالغة في التقرير فان أصل المعنى بدونهما : قل ليفرحوا بفضل الله وبرحمته، فأخر الامر وقدم عليه متعلقه لافادة الاختصاص كأنه قال إن كان في الدنيا شيء يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته ، وأدخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار فبهما فليفرحوا دون ما يجمعون من متاع الدنيا المبين في آخر الاية ثم ادخل على الامر (فبذلك) لزيادة التأكيد والتقرير ، وتفصيل مباحثه في الاعراب أكثر مما قلنا يشغل عن المعنى والاعتبار به ، وهو خروج عن منهجنا في هذا التفسير

ثم قال ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ اي ان الفرح بفضله وبرحمته أفضل وأنفع لهم مما يجمعونه من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث وسائر متاع الحياة الدنيا ، مع فقدهما ، لا لأنه سبب سعادة الآخرة الباقية ، المفضلة على الحياة الدنيا الفانية ، كما اشتهر فيا خطته الاقلام ولاكته الالسنة ، بل لانه هو الذى يجمع بين سعادة الدارين كما حصل بالفعل ، إذ كانت هداية الاسلام بفضل الله وبرحمته سببا لما ناله المسلمون في العصور الاولى من الملك الواسع ، والمال الكثير ، مع الصلاح والاصلاح ، والعدل والاحسان ، والعلم والعرفان ، والعز الكبير ، فلما صار جمع المال ومتاع الدنيا وفرح البطر به هو المقصود لهم بالذات ، وتركوا هداية الدين ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم كما شرحناه مراراً

فتاوى المنار

(سماع الغناء من آلتي الحاكي (الفونغراف) والمذياع (الراديو)

(س ١٦) من صاحب الامضاء في مليبار (الهند) تاخر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

إلى حضرة السيد الجليل المحترم صاحب الفضل والفضيلة محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء حفظه الله ونفعنا وجميع المسلمين بعلومه.

بعد التحية اللائقة بمقامكم الشريف وجزيل السلام ورحمة الله وبركاته

أرفع لفضيلتكم السؤال الآتي راجيا التكرم منكم بالاجابة عليه سريعاً، ولكم منا جزيل الشكر، ومن المولى عظيم الثواب والاجر

هو . ماحكم آلتي الغناء المسماتين بفونوغراف وهارمونياء هل يجوز استعمالها للمسلمين في الافراح وغيرها ، وهل يجوز الالتذاذ بسماع غنائهما أم لا .

فالمرجو من فضيلتكم أن تجيبوا جوابا شافيا في العدد القريب من مجلتكم المنار الغراء لازلتم ملجأ للمسلمين محمد الكود نجيري

(ج) حكم الآلات الناقلة للاصوات انه يجوز استعمالها والسماع منها لما يسمع من الناس وغيرهم بدونها ، بل ربما كان السماع منهما جائزاً لما يحظر سماعه من الالسنة لعارض كالسماع من المرأة لما يثير الافتتان بها عند من لايعد السماع منها محظوراً لذاته وهو الصواب فالمسألة واضحة لاتحتاج الى الاطالة إلا اذا كان للسائل شبهة فيها وعليه اذاً أن يبينها في السؤال. فان كان يرى ان سماع الغناء محظور لانه مستلذ مطلقا أو في غير العرس وقدوم المسافر كما يقول به بعض الفقهاء، وهو ماتشير ليه عبارته فسماعه من الآلة كسماعه من الناس وقد بينا في المجلد العشرين ان سماع غناء ليس محرما لذاته فراجعوه

﴿ حكم سماع القرآن من الآلات الحديثة ﴾

(س١٧) من صاحب الامضاء بأسيوط

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل السيد محمد رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله. وبعد فقد دار الحديث بيني وبين جماعة من اخواني في سماع القرآن الكريم من الحاكي (الفنوغراف) هل يحل أو لا يحل؟ وهل اذا كان جائزاً تترتب عليه آثاره من سجود عند سماع آية سجدة أو لا؟

وهل اذا سمع الانسان قارئا يقرأ القرآن في التليفون أو الراديو يكون كذلك أو ان ذلك مشروط بالسماع من انسان عاقل

وكثر الجدل بيننا في هذا وأخيراً قد رأينا أن نتوجه بالسؤال لفضيلتكم علكم تتكرمون بافادتنا أبقاكم الله ذخراً للاسلام ومصدر نفع للمسلمين

محمود حسين مهدلي
المحامي الشرعي بأسيوط

(ج) القرآن هو القرآن وسماعه هو سماعه لا يختلف حكمه باختلاف وصوله إلى السمع بواسطة آلة تنقل الصوت أو بغير واسطة، إذ الاداء واحد، والمؤدى واحد، ومثله نقل القرآن بالكتابة لا فرق فيه بين رسمه بالقلم تحركه اليد، ورسمه بالآلة الكاتبة أو آلة التلغراف أو آلة الطبع، ولا بين الحروف الكوفية والنسخ وغيرهما على اختلاف الاشكال فيها، مادام المقروء واحداً لا يختلف وهو المقصود منها. اذا علم هذا تبين به ان على سامع القرآن من الآلة أن يستمع له وينصت متأدبا معتبراً وانه يسن له السجود اذا سمع آية سجدة وكان متوضئا

وقد كنت سئلت عن السماع من (الفونوغراف) في أثر شيوعه في بلاد الاسلام، ونشرت منها سؤالين في المجلد السادس (سنة ١٣٢٥) وردا من سنغافورة وأجبت عنهما جوابا مفصلا فيه بنيت فيه أن حكم سماع القرآن منه على قصد السامع وذكرت أن الاستاذ الامام كان يتأثم منه مطلقا، وان بعض أصحاب العمائم أباحه مطلقا، وأن

رأينا ماذكرنا من قصد السامع هل هو الاتعاظ والاعتبار والتفقه المأمور بها من يسمع القرآن ؟ أم التلهي المعهود من بعض الناس ؟ وجزمنا بأن هذا هو المحظور لانه من اتخاذ الدين هزواً ولعبا، وذكرنا فيه حكم الاسطوانات هل تسمى قرآنا ويكون لها حكم المصحف أم لا . فتراجع في ص ٤٢٩-٤٤٢ من المجلد السادس

ثم سئلنا عنه في سنة ١٣٤٥ فأجبنا عنه في صفحة واحدة من المجلد ٢٨ (وهي ص١٢٠) أحلنا فيها على الفتوى الاولى

﴿ درجة حديث قراءة سورة يس على الميت ﴾

(س١٨) من صاحب الامضاء في الجزائر

بما أننا على مذهبكم الحق مذهب السلف الصالح وكان من مذهب مالك رحمه الله كراهة القراءة على الجنائز وكراهة رفع الصوت خلفها، ولكن أتباع مالك في المغربين تأصلت فيهم عادة قراءة سورة يس ورفع الصوت بلا إله إلا الله خلف الجنازة بالرغم من اجماع مصنفي وشراح فقه مالك على كراهة ذلك وانها ليست من فعل السلف كذا قالوا كلهم، ولكن كلهم قالوا لا بأس بقراءة سورة يس مالم يقصد بها الاستنان محتجين بهذا الحديث الذي في النسائي ورواه أبو الدرداء . وان الحديث بزعمهم مقدم على قول مالك انه يعني شأن القراءة يس أو غيرها ليست من فعل السلف ، وكذا تمسكوا بأخبار واهية من ان عبد الله بن عمر أمر بقراءة سورة البقرة إلى غير ذلك مما تمسكوا به ولأنهم يتقاضون على ذلك الاجرة وان الطبقة القراء الصغار عاشوا في هذه البدعة فانتصر لهم الفقهاء والشيوخ الخرافيون كالدجوي الخ فالرجاء أن تفيدونا بدرجة الحديث هل يعمل به كما ذكر أولا ودمتم.

الزواوي

(ج) حديث « اقرؤا يس عند موتاكم » وفي رواية « على موتاكم » هو لمعقل ابن يسار وهو ضعيف بالاتفاق والمراد فيه من الموتى من حضرهم الموت كما صرح به بعض المحدثين والفقهاء في شرحه، وما ذكرتم من مذهب مالك (رح) في المسألة

هو الحق، وما ذكرتم من مخالفته فهو بدعة والحديث المذكور لا يحتج به. وتجدون تفصيل الكلام في تخرجيه ودرجته ومعناه وعمل الناس به مفصلا في الصفحة ٢٦٥—٢٦٨ من الجزء الثامن من تفسير المنار (الطبعة الاولى) وهو في أثناء البحث الواسع المفصل في القراءة على الموتى وللموتى من آخر تفسير سورة الانعام

(أسئلة من بيروت)

(س ١٩-٢٥) من صاحب الامضاء

(بسم الله الرحمن الرحيم)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد فاني أرفع الى فضيلتكم الاسئلة الآتية راجياً التكرم بالاجابة عليها.

(١) هل يجوز الاعتقاد والعمل بالاحاديث الموضوعة «المكذوبة» والضعيفة في فضائل الاعمال وغيرها أم لا ؟

(٢) هل هذان الحديثان الآتيان صحيحان معتمدان يجوز العمل بهما أم لا ؟ وهما « يوم الاربعاء يوم نحس مستمر » وفي رواية أخرى « آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر » « يوم السبت » يوم مكر وخديعة « والاحد » يوم غرس وبناء « والاثنين » يوم سفر وطلب رزق « والثلاثاء » يوم حديد وبأس « والاربعاء » لا أخذ ولا عطاء « والخميس » يوم طلب الحوائج « والجمعة » يوم خطبة ونكاح »

(٣و٤) هل يستحسن زيارة المريض يوم الاربعاء والتزوج في شهر جمادى الاولى والثانية أم لا ؟ وهل ورد في ذلك كله شيء صحيح يعتمد عليه أم لا ؟

(٥) هل اذا أذنب الانسان في الشهور والايام الفاضلة كشعبان ورمضان ويوم الخميس والجمعة وغيرها يزداد عذابه وعقابه في القبر وفي الآخرة عن باقي الشهور والايام الاخر أم لا ؟

(٦) هل ورد عن النبي ﷺ شيء صحيح يعتمد عليه في أفضلية الاعداد والسنين، والشهور والايام، والاوقات والمأكولات، والمشروبات والملبوسات وغيرها أم لا ؟ تفضلوا بالجواب ولكم الاجر والثواب عبد الحفيظ ابراهيم اللادقي

(١٩) العمل بالاحاديث الموضوعة والضعيفة

العمل بالاحاديث الموضوعة غير جائز بالاجماع بل بالبداهة فانها ليست بأحاديث واطلاق لفظ «حديث» على الموضوع مشروط بوصفه بالموضوع أو المصنوع أو المكذوب فالمراد باللفظ ماقيل إنه حديث وليس بحديث، وأما الحديث الضعيف فقد اختلف العلماء في جواز العمل به مع عدم الاستدلال به على حكم شرعي فقيل بمنعه مطلقا، وقيل بجوازه بشروط بيناها في المنار مراراً آخرها الفتوى ٢٠ من المجلد ٣١ ص١٢٧ فراجعوها

(٢٠) أحاديث يوم الاربعاء وأيام الاسبوع

هذه الاحاديث موضوعة باطلة، وقد بينا ذلك بالتفصيل في المجلد التاسع والعشرين من المنار فتراجع في (ص ٥٢٤)

(٢١و٢٢) عيادة المريض يوم الاربعاء

يوم الاربعاء كغيره من الايام لافرق بينها في زيارة الاهل والاصدقاء وغيرهم وعيادة المرضى إلا إن كان الزائر أو العائد يعلم أن بعضهم يتشاءم ببعضها ويكرهه فلا ينبغي له أن يؤذيه فيها

(٢٣) التزوج في شهري جمادى

هذان الشهران كغيرهما من الشهور في التزوج فليس لهما مزية شرعية في استحسانه ولا كراهته فيهما ولا مزيد فضيلة

(٢٤) الذنوب في الايام والشهور الفاضلة

الايام والشهور في ذاتها لاتفاضل بينها وانما الفضيلة فيما يعمل فيها ففضيلة رمضان في عبادة الصيام، وفضيلة الاشهر الحرام الثلاثة في أداء مناسك الحج والسفر إليها والرجوع منها، وكان رجب يشاركها فيما سميت لاجله بالحرم وهو تحريم القتال فيها، وفضيلة يوم عرفة وأيام التشريق ويوم الجمعة بما يعمل فيها معروفة. ومن المعلوم بالبداهة أن الايام التي شرع الله تعالى فيها عبادة خاصة بها يكون فعل المعاصي فيها أقبح منه في غيرها، وأدل على ضعف الايمان وتعظيم شعائره وأن الجرأة عليها فيها تكون أفعل في افساد النفس وتدسيتها الذي هو منشأ عقاب

الآخرة، كما ان تزكيتها هي منشأ ثوابها كما قال تعالى (قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها) ولكن لايمكن تعيين زيادة العذاب عليها في البرزخ الذي يعبر عنه بعذاب القبر ولا في الآخرة إلا بنص من الشارع

(٢٥) أفضلية بعض الازمنة والمآكل والملابس على بعض

تقدم آنفا ان بعض الايام والشهور أفضل من بعض بما يشرع فيها من عبادة تقرب إلى الله تعالى وترضيه ويستحق بها العامل مزيد ثوابه اذا كان مخلصا فيها، وورد في الكتاب والسنة تفضيل بعض الاوقات بمجمل ذلك كالدعاء والاستغفار في الاسحار، وصلاة التهجد وساعة الاجابة في يوم الجمعة وحكمة ابهامها. وأما المآكل والاشربة والملابس فقد يفضل بعضها بعضا بمنافعها الصحية ولذاتها لا لذاتها، وورد في بعضها أحاديث قليلة بيناها بمناسبات مختلفة يقل فيها ماهو ديني منها كملابس الاحرام بالحج والعمرة، وان مثل هذه الاسئلة المجملة المبهمة عن أمور كثيرة من الارهاق الذي لاسبب له إلا تلذذ السائل لا الحاجة الدينية. فالمرجو أن لايسأله أحد إلا عن أمر معين يحتاج الى معرفة حكمه أو حكمته

(شرب الدخان في مجالس القرآن)

(س٢٦) من صاحب الامضاء من دمنهور

حضرة أستاذي الجليل السيد رشيد رضا صاحب المنار السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فنرجو نشر رأيكم في شرب الدخان في مجالس القرآن على صفحات المنار ولكم منا الشكر ومن الله جزيل الثواب محمد عبد الرحمن الحاوي

مدرس بدمنهور شبرا

(ج) سبق لنا جواب عن مثل هذا السؤال في المنار خلاصته ان هذا العمل تابع للاعتقاد الشخصي والعرف، فمن كان يعتقد ان التدخين مباح وعرف قومه وأهل بلده انه لاينافي الادب فلا يحظر عليه، ومن اعتقد انه حرام أو مكروه ففعله له في مجلس القرآن يزيده غلظة، وهكذا اذا كان عرف الناس أنه ينافي الادب فليس له أن يفعله وإن اعتقد إباحته والله أعلم

المستشرقون في موقفهم الخطير

(إزاء الاسلام)

(بقلم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ـ ونشرت في جريدة الجهاد)

هذه مسألة جلى لايتنبه اليها الشرقيون كما يجب أن يتنبهوا وكما هو شأنهم في كثير من المسائل، ولكن عليهم من الآن فصاعداً بعد أن زعموا كونهم تقدموا ورقوا أن يتنبهوا لهذا الموضوع ، وذلك أن أوربة عالم كبير قد أخذ بزمام العالم كله في الوقت الحاضر وهو يتلقى معلوماته عن الشرق والشرقيين من طريقين ، أحدهما طريق القناصل والسفراء والمعتمدين الرسميين وهؤلاء يكتبون عن الشرق والشرقيين كل شيء ولا يكتمون حكوماتهم عنه حديثاً إلا أن حكوماتهم تتصرف بتقاريرهم كما تشاء بحسب أهوائها ومصالحها فهي تكتمها أحياناً وقد تطمسها طمساً تاماً حتى كأنها لم تكتب ولم تقدم، وهي تفشيها أحياناً اذا اقتضت ذلك سياستها، وكثيراً ما تكتم شيئاً منها وتنشر شيئاً ، وبالاختصار جميع تقارير سفراء أوربة وقناصلها في الشرق هي رهن أغراض النظارات الخارجية في أوربة ، واذا قلنا إنها رهن أغراض نظارات أوربة الخارجية فمعنى ذلك أنها رهن التغطية والتمويه والتلفيق والتبديل والتعديل والفصل والوصل ، وانه لاشيء هناك يقال له حقيقة بل لايوجد هناك إلا مايقال له « مصلحة »

وأما الطريق الثاني لمعرفة أحوال الشرق والشرقيين فهو طريق الاستشراق وذلك انه يوجد في أوربة طبقة من المتعلمين تعنى خاصة بدرس اللغات الشرقية وكل مايتعلق بالشرق وأهله، وهم يتنوعون في هذه الدروس فمنهم من يتخصص بعلوم الصين ، ومنهم من يتخصص بعلوم اليابان ، ومنهم بالمعلومات عن الهند أو عن الجاوى ، ومنهم من يجعل همته منصرفة إلى الاستقصاء في أخبار فارس ، ومنهم من يوجه نظره الى تركستان وغير ذلك، وان جانباً عظيماً من الاستشراق وربما يكون هو الاعظم متوجه الى درس الاسلام والبلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها.

وإن هذه الطبقة التي تعنى بشأن الاسلام والمسلمين هي التي تكيف المعلومات

الاسلامية في أوربة بكيفية نظرها وتمثيلها للعالم الاسلامي ان خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، هذه الطبقة هي الترجمان الذي يلقي الى ستمائة مليون أوربي وصف أحوال الاسلام والمسلمين،فان كان هذا الترجمان أميناً تلقى هؤلاء الستمائة مليون أوربي تلك المعلومات على وجهها واعتدلوا بحق الاسلام والمسلمين ، وإن كان الترجمان خائناً أو اثيما يحرف الكلم عن مواضعه ويقلب الحقائق عمداً لمرض في نفسه، أو لاحنة في صدره، أمكنه أن يهيج من احقاد الاوروبيين الكامنة على المسلمين، وأن يثير من عداوتهم لهم ما ليس لضرره حد،لان العالم الاوربي إذا فكر قال،وإذا قال فعل وإذا فعل قام بانقلابات كثيرة ، هذا إلى اليوم ولا نعلم ماذا يكون في الغد

فهل هذه الطبقة التي يصح أن يقال انها ترجمان العالم الاسلامي لدى العالم الاوربي هي أمينة أم خائنة في الترجمة ؟ الجواب عليه هو هذا البحث الذي نريد الآن أن ننبه الافكار اليه بعد أن نقرر ان هذه الطبقة هي التي تصور أحوال المسلمين للاوربيين بحسب درجتي صدقها وكذبها أو درجتي علمها وجهلها

من هؤلاء المستشرقين فئة ما استشرقوا ولا خطوا خطوة في هذه السبيل إلا لأجل أن يتعقبوا عورات الاسلام ومثالبه ،ويخوضوا في أعراض المسلمين ، ويبحثوا عن زلاتهم ليجسموها ويبرزوها لأنظار الاوربيين بالشكل المستبشع الذي تنفر منه طباعهم ، وتثور حفائظهم ، وذلك حتى يزدادوا بغضاً للاسلام وبعداً عنه ، وهذه الفئة من حيث ان أصل استشراقها هو العمل لخدمة المسيحية وتشويه الاسلام بما أمكن لاتقتصر على تجسيم العورات اذا وقعت عليها ،بل يبلغ بها سوء القصد أن تقلب الحقائق قلبا ، وأن ترتكب التزوير عمداً ، وأن تأخذ بالحوادث الجزئية فتعممها فتجعل منها قواعد ، وكل شيء تعمله هذه الفئة على قاعدة « إن الغاية تبرر الواسطة » فالاسلام بزعمها هو شر محض، فينبغي تنفير الناس منه بالحق وبالباطل ، وهذه الفرقة من المستشرقين كثيرة العدد يطول بنا تعداد أسمائها ، ومن جملتها لامانس اليسوعي البلجيكي ومارتين هارتمان الالماني ، ومرغليوث الانكليزي ، وفنسنك الذي ذكر عنه الدكتور حسين الهراوي انه طعن في الرسول عليه السلام ، وأنا لم أقرأ طعن هذا ولكني قرأت مطاعن

الآخرين ، وقد نشرت في حاضر العالم الاسلامي أسماء مشاهير المستشرقين المتازين في التحامل على الاسلام فليراجع ذلك من أراد في ذلك الكتاب.

ومن المستشرقين فئة أخرى غرضهم أيضاً ان يخدموا المدنية الاوربية والثقافة المسيحية وان يبثوها بما أمكنهم بين المسلمين ولكنهم لا يستبيحون ما تستبيحه الفئة الاولى من الكذب والبهتان ، وقلب الحقائق ، والالواذ بكل عضيهة للتمثيل بالاسلام وأهله ، كلا هؤلاء يلتزمون في مباحثهم الطريقة العلمية التي تقتضي معرفة الحق في أي جانب كان ، ولكنهم لا يتحرجون عند أول فرصة تلوح لهم ان يتولجوها ويحملوا على الاسلام باسم العلم بزعمهم ، وأن يجسموا الهنات ، وان يعمموا الجزئيات في الاحايين ، وأن يتجاهلوا ما عندهم من الطامات الكبرى التي لا تقاس اليها معايب الاسلام في كثير ولا قليل ، فهذه الفئة يتألف منها أكثر المستشرقين وهم يعدون اجمالا من ذوي الفضل على العلم ، ومن اللازم أن يستفاد منهم ، لكن مع دوام الحذر مما يلقونه أحيانا من السموم بحق الاسلام مما يكون ضرره أشد من ضرر الفئة الاولى التي بهتانها ظاهر للعيان ، ويمكن أن توصف هذه الفئة « بالعدو العاقل » ومن هؤلاء الاستاذ ماسينيون الافرنسي وسنوك هور كرونيه الهولندي وغيرهما

ومن المستشرقين فئة ثالثة قليلة العدد في أوربة إلا ان منها رجالا محققين وهؤلاء يتحرون مزيد التحري ، وينصفون الاسلام انصافا تاما لا يشوبه أدنى تحامل ، وإن بدر منهم انتقاد للاسلام في شيء فيكون عن اعتقاد أو وجهة نظر نظروها أو خطأ وقعوا فيه لا عن سوء نية ، ولا عن تعمد انتقاص ، ولا أعلم في هذه الطبقة أشهر من غولد سيهر المجري الذي هو في الحقيقة أفهم الاوربيين لقواعد الاسلام ، ومنهم في الحياة الاستاذ كامفمير الالماني والاستاذ مونتا السويسري ومنهم كارادهفو الافرنسي صاحب كتاب مفكري الاسلام ، ومنهم الدكتور ماير هوف الالماني ، ومنهم غروسه الافرنسي ، ومنهم رينه الافرنسي الذي بلغ به استشراقه من حب الاسلام أن دان بالاسلام وحج البيت الحرام ، ومنهم علماء آخرون لست الآن في مقام استقصاء من جمتهم

ولا شك أن الفئة الاخيرة قد خدمت الاسلام خدمات جلى في أوربة وحولت

كثيراً من العقائد الباطلة بحق الاسلام عن مجراها الاول ، وخففت كثيراً من الاحقاد ، وصححت جمهرة من الاوهام ، ولكنها مع الاسف لم تقدر أن تنسف تلك الجبال المتراكة من البغض والعدوان، والعقائد الفاسدة بحق الاسلام والمسلمين، لأن التيار الاصلي الباقي من القرون الوسطى لا يزال شديداً

كان زميلي احسان بك الجابري يتحدث منذ يومين إلى مهندس كبير قد يكون أشهر مهندس في سويسرة وهو من كبار المفكرين فقال لزميلي : نشأنا من الصغر في بغض الاسلام وربانا آباؤنا ومعلمونا على مبادىء من العداوة للاسلام نحن الآن نعلم بطلانها ، لكننا بحكم الاستمرار لا نقدر أن نتخلص منها »

ان غوته الشاعر الالماني الأكبر الذي يقول الالمان إنه أكبر دماغ ظهر في ألمانية ، وكان شبان الالمان ينتحرون من تأثير بعض رواياته الشعرية ، ثم غوته هو نفسه قال وكلامه هذا مدون عنه اذا كان هذا هو الاسلام أفلسنا كلنا مسلمين؟

هذا الرجل الذي سحر ناشئة الالمان في عصره ولا يزال يسحرها إلى الآن قد عجز عن أن ينسف ما تراكم من الاوهام المتكاثفة بحق الاسلام في ألمانية، هذا والالمان أقل الامم الاوربية تحاملا على الاسلام والمسلمين فما ظنك بغيرهم؟

حرر الاستاذ الحجة السيد رشيد رضا في المدة الأخيرة كتابا أسماه «الوحي المحمدي » من أنفس ما كتبه المسلمون في هذا العصر وكل عصر ، وكأنما كتبه تلقاء الانتقادات الاوربية التي تتوجه على الاسلام ، إما عن تحامل وعداوة، وإما عن جهل المستشرقين بحقائق كثيرة فاتتهم، أو عن جهل المؤلفين المسلمين أنفسهم بحقائق دينهم وبكيفية الدفاع عنهم إلا من عصم ربك ، أو بعدم فهم الكثيرين منهم لأسرار الشرع المحمدي ، وقد أهديناه إلى من نحسن الظن فيهم من المستشرقين فلعلهم ينتدبون لترجمته الى اللغات الاوربية⁽¹⁾ فتتبدد به أوهام، وتنقشع ضلالات،

١) انني طلبت من صديقي الامير شكيب عناوين من يعرف من المستشرقين الذين يعرفون لغتنا وأرسلت كتاب الوحي الى كل من أرسل إلي عناوينهم ووعد بارسال غيرها وغرضي من الارسال اليهم اقامة حجة الاسلام عليهم بوقفهم على حقيقته والوقوف على آرائهم فيه بعد، واني لا نتظر منه ارسال عناوين أخرى

ويتجلى مافي المطاعن على أحكام القرآن من المحالات ، فالذي يوفق اليه الاستاذ صاحب المنار في هذا الباب لايوفق اليه غيره

وأما الخلاصة التي أريدها من هذه المقدمات فليست إخراج المستشرق فنسنك من المجمع اللغوي المصري ،هذا شيء يعني الحكومة المصرية ورعاياها المصريين وهي أدرى بشغلها ، وأنا لست من مصر ولا أقدر أن أطأ بقدمي أرض مصر ، ولكن أريد تنبيه اللجنة المنتدبة لترجمة الانسيكلوبيذية الاسلامية الى العربية الى شيء وهو أنه مع كون ترجمة هذه الانسيكلوبيذية هي في الدرجة القصوى من الافادة بل هي ضرورية لناشئة العالم الاسلامي لاتخلو من محاملات منكرة على الاسلام ، ومن غلطات وخبطات علمية في مباحثها التي تولاها بعض الفئة الاولى المتحاملة من المستشرقين ، فان تحرير هذا الكتاب تشطره عدد كبير من المستشرقين وكل منهم كتب بحسب معرفته ، ومنهم من كتب بمقتضى هواه أيضاً ، فعلى لجنة الترجمة التي يجب أن يكون فيها الاديب والمؤرخ والجغرافي والفلكي والرياضي والكيماوي والجيولوجي والطبيب والفقيه والفيلسوف والمتكلم لتكون الترجمة صحيحة أن يكون بجانبها لجنة تضع في الحواشي تصحيح ما يجب تصحيحه من الاغلاط ، وتستدرك أيضاً على فوات المتن ، وإلا فنكون أدخلنا في عقول ناشئتنا الجديدة ضلالات لاتحصى باسم العلم والفن وحرية الفكر والاستنتاج التحليلي وغير ذلك من الالفاظ التي يلوكها بعض الاوربيين في تسمية سمومهم الخبيثة ، ودسائسهم النكرة لحمل المسلمين على اتخاذ ثقافتهم ، والتحول عن الاسلام ، فنحن من هذا البلاء في القيم المقعد الذي يكفينا بدون ترجمة انسيكلوبيذية اسلامية يحرر فيها لامنس وأضرابه ، فكيف اذا أصبحنا نأخذ أخبار الاسلام والمسلمين عن هؤلاء ولا ننبه عليها ؟

إليك الدليل على تحامل لامنس ومحاولته قلب الحقائق العلمية ما أرسل به إلي أحد أصحابي من مصر من مقال في الاهرام ينقل كلام لامنس عن عرب الاندلس وهو بحرفه « لم يكن بين المسلمين الذين قاموا بفتح الاندلس إلا القليل من العنصر العربي الخالص ،فكان منهم قواد العسكر وأصحاب الرتب فيه ليس

غير . أما أكثرية الجيش فكانت مؤلفة من البربر والافريقيين وفضلا عن ذلك فان عدد العرب الأقحاح كان ينقص باطراد متواصل بسبب الحروب الاهلية . فاذا تقرر هذا رأينا أنفسنا مدفوعين إلى الاقرار مع الاستاذ ريبيره بان نسبة العنصر العربي في تكوين الشعب الاسباني المسلم قليلة جداً، ومن ثم فلا شيء يجيز لنا نعت مسلمي الاندلس بالعرب »إلى غير ذلك من الهذيان الذي هذا لامنس اليسوعي ومن قبله صاحبه العالم الاسبانيولي. العرب يفتخرون بمدنيتهم الاندلسية، والاسلام يتخذها حجة على أهليته للتمدين والتثقيف والسبق في ميدان الحضارة، وهذا بيت القصيد، فلامنس اليسوعي يريد إنكار هذه الحقيقة التي تأتي بعكس مايقرره دائما هؤلاء المتحاملون من أن الاسلام لم يوفق حتى الآن إلى تأسيس مدنية راقية. ولما كانت هذه المقالة قد طالت وكان الرد على كلام لامنس هذا بالادلة العلمية القاطعة يأخذ بعض أعمدة من «الجهاد» فاننا نرجيء هذا الرد الى عدد قادم إن شاء الله

[المنار] أشكر لصديقي الامير شكيب هذا البيان لحقيقة حال جماعة المستشرقين وأصنافهم الثلاثة، ثم أشكر له مثلا ماشهر به على لامنس اليسوعي المشهور بغلوه في عيوب طغمته وشرها الكذب، وتحريف الكلم فيما ينشرون من الكتب، والخيانة في العلم والادب لخدمة سياستهم الدينية على قاعدتهم المشهورة «الغاية تبرر الواسطة» عرفت هذا منذ كنت تلميذاً بتحريفهم لكتاب الالفاظ الكتابية، واني على اعتقادي بان أمير البيان سيفضح لامنس في رده عليه بما هو أحق به وأهله، وقل أن يقدر عليه غيره، لا يسعني إلا أن أسبقه فأقول للامنس إن العرب نزلوا كالغيث من سماء الإسلام على جميع الاقطار فأحيوا جميع الشعوب الآسيوية والافريقية والاوربية وأصلحوا افساد حضارتهم وملاهم وأديانهم على قلة عددهم في كل قطر، فان كانوا وجدوا عونا لهم من أبنائهم البربر الذين مدينوهم بالاسلام على فتح الاندلس فالفضل الاول على الفريقين لهم، وإلا فلماذا لم يفعل ذلك البربر في أنفسهم قبلهم، فالعرب كانوا أقلية في غير الاندلس ولكن قليلهم لا يقال له قليل، فهم كالملح قليله يصلح الطعام، وكالنور شعلة منه تطرد الظلام، ولولا أن تداركوا العالم بالاسلام، لقضت محاكم التفتيش الكاثوليكية على حضارة جميع الاقوام.

أصل الشيعة وأصولها

قرظنا في الجزء السابق هذه الرسالة التي ألفها علامة الشيعة ومجتهدها الشيخ محمد آل كاشف الغطاء الشهير لدعوة أهل السنة إلى مذهبه، ونشرها الاستاذ الاديب الاريب زميلنا صاحب مجلة العرفان، ورأينا من الواجب علينا أن نكتب مقالا آخر نبين به بعض ما انتقدناه عليها من جهة الغلو الذي اعتاده علماء الشيعة حتى صارت العادة عندهم عبادة، ومن ناحية ضعفهم في علم الحديث ولا سيما روايته وما يصح منه وما لا يصح بحسب أصول العلم، وقد نشير إلى ناحية ثالثة هي ناحية التاريخ، ولا نعرض للخوض في مسألة الامامة ولا مسألة عصمة الاثنى عشر التي هي أساس المذهب لانها مفروغ منها في المؤلفات القديمة وليست عملية في هذا الزمان، وما كان الجدال في أصول المذاهب إلا ضاراً لاهلها في دينهم ودنياهم في كل زمان، وشر ضرره تفريق الكلمة، وتمزيق نسيج الوحدة، لانه مبني على عصبية المذاهب ولن تكون إلا تقليدية، وما أضيع البرهان عند المقلد ؟ وأبدأ بكلمة في الغلو فأقول:

من هذا الغلو اطراء أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه المتضمن لاحتقار الاسلام وما يستلزمه مما لا يحسن التصريح به، بما أنكرناه على السيد عبد الحسين نور الدين العاملي من قبل، فلم يمنع ذلك الاستاذ كاشف الغطاء أن يعيده مقراً له من بعد، إذ قال في أول ص ٢١ بعد ذكر من سمى من الصحابة في الشيعة ما نصه «ولكن ما أدري أهؤلاء الذين أرادوا هدم الاسلام أم إمام الشيعة علي بن أبي طالب الذي يشهد الثقلان انه لولا سيفه ومواقفه في بدر وأحد وحنين والاحزاب ونظائرها لما اخضر للاسلام عود، ولما قام له عمود، حتى كان أقل ما قيل في ذلك ما قاله المعتزلي أحد علماء السنة (!!):

ألا انما الاسلام لولا حسامه كعفطة عنز أو قلامة ظافر

هذا ما كتبه مجتهد النجف الأكبر، وعلامتهم الاشهر، ثم فسره بمختصر مما فسره به عبد الحسين نور الدين العاملي من قبله وضرب له هذا المثل الشعري الالحادي

الله أكبر، ودينه الاسلام أعلى وأظهر، وأزكى واطهر، واعز واقهر، من تشبيه هذا المعتزلي الرافضي — لا السني — له بضرطة أنثى المعز، وقلامة الظفر

نعم إن دينا سماه الله دينه، وأتمه وأكمله، ووصفه بما وصفه، ووعد باظهاره على الدين كله، وإتمام نوره بقدرته وفضله، وبعث به خير خلقه محمداً رسول الله وخاتم النبيين، ورحمته للعالمين، وجعل ملته هي الباقية إلى يوم الدين، وأيده بملائكته فوق تأييده بالمؤمنين، إن ديناً هذا شأنه يجب على كل مؤمن به أن يوقن أنه أجل وأكبر وأعظم وأعلى وأسمى وأرفع وأمنع من أن يتوقف ظهوره ونوره ونصره وبقاؤه على جهاد أي فرد من أفراد المؤمنين، وأن يكون من امتهنه بأنه لولا فلان من أتباعه لكان كضرطة أنثى المعز أو قلامة الظفر التي تلقى وتداس بالنعال، جديراً بأن يكون من أجهل الناس به، وأبعدهم عن الايمان به واتباعه، وإن وصفه مجتهد الشيعة بأنه من المعتزلة علماء السنة، ومتى كان المعتزلة من علماء السنة؟ فأين علم هذا المجتهد الكبير بالمذاهب والتاريخ؟

لو كنا نريد أن نتكلم في أصول المذاهب لبينا للقارىء أي الفريقين تبعت المعتزلة فيما خالفوا فيه السنة من تحكيم عقولهم في تأويل كلام الله وكلام رسوله وغير ذلك وشر من قول هذا المعتزلي بل الزنديق المحتقر للاسلام قول من جعل ذمه وإهانته له أقل مايقال فيه، فأي شيء أقل من ضرطة المعز وقلامة الظفر ؟ أهذا هو مذهب الشيعة الذي يدعي العلامة كاشف الغطاء أن النبي ﷺ هو الواضع له ؟ فهذا مثل من غلو القوم اللاشعوري

ثم انه ادعى ان النبي ﷺ هو الذي وضع أصل مذهب الشيعة وان خيار أصحابه تلقوه عنه، ثم كان أئمة الاسلام من مدوني كتب السنة حفاظ الحديث والمفسرين وسائر علماء الملة منهم الخ

من الغريب أنه يحتج على هذا الاصل بروايات يعزوها إلى الكتب المعتمدة عند أهل السنة، وما أدري أعلمه بالروايات المعتمدة عند أهل السنة كعلمه بكون المعتزلة منهم ؟ أم هو يتعمد التدليس والايهام ؟ كل ذلك جائز، وهو ماتراه في أول ص ٤١ وما بعدها جوابا عن سؤال أورده :

قال « إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الاسلام — هو نفس صاحب الشريعة الاسلامية — يعني ان بذرة التشيع وضعت مع بذرة الاسلام جنبا إلى جنب، وسواء بسواء، ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقي والعناية حتى نمت وأزهرت

في حياته ، ثم أثمرت بعد وفاته . وشاهدي على ذلك نفس أحاديثه الشريفة — لا من طريق الشيعة ورواة الامامية حتى يقال إنهم ساقطون لأنهم يقولون بالرجعة ، أو ان راويهم (يجر إلى قرصه) بل من نفس أحاديث علماء السنة وأعلامهم ، ومن طرقهم الوثيقة التي لا يظن ذو مسكة فيها الكذب والوضع . وأنا أذكر جملة ماعلق بذهني من المراجعات العابرة والتي عثرت عليها عفواً من غير قصد ولا عناية :

« فنها مارواه السيوطي في كتاب (الدر المنثور ، في تفسير كتاب الله بالمأثور) في تفسير قوله تعالى (أولئك هم خير البرية) قال

أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي عليه السلام فقال النبي ﷺ « والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة » ونزلت (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية)

وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال : لما نزلت (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال رسول الله ﷺ لعلي « أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » (؟)

وأخرج ابن مردويه عن علي (ع) قال : قال لي رسول الله ﷺ « ألم تسمع قول الله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) هم أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض اذا جاءت الامم للحساب تدعون غراً محجلين »

انتهى حديث السيوطي . وروى بعض هذه الاحاديث ابن حجر في صواعقه عن الدارقطني وحدث أيضاً عن أم سلمة ان النبي ﷺ قال « ياعلي أنت وأصحابك في الجنة ، أنت وشيعتك في الجنة »

« وفي نهاية ابن الاثير مانصه في قمح : وفي حديث علي (ع) قال له النبي ﷺ « ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين ويقدم عليه عدوك غضاباً مقمحين » ثم جمع يده الى عنقه يريهم كيف الاقماح انتهى وبالي ان هذا الحديث أيضاً رواه ابن حجر في صواعقه وجماعة آخرون من طرق أخرى تدل على شهرته عند أرباب الحديث .

« والزمخشري في (ربيع الابرار) يروى عن رسول الله ﷺ انه قال « ياعلي اذا كان يوم القيامة أخذت بحجزة الله تعالى وأخذت أنت بحجزتي ، وأخذ ولدك بحجزتك ، وأخذ شيعة ولدك بحجزهم فترى أين يؤمر بنا »

ولو أراد المتتبع كتب الحديث مثل مسند الامام احمد بن حنبل وخصائص النسائي وامثالها أن يجمع أضعاف هذا القدر لكان سهلا عليه . واذا كان نفس صاحب الشريعة الاسلامية يكرر ذكر شيعة علي وبنوه عنهم بأنهم هم الآمنون يوم القيامة وهم الفائزون، والراضون والمرضيون، ولا شك ان كل معتقد بنبوته يصدقه فيما يقول، وانه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى، فاذا لم يصر كل أصحاب النبي ﷺ شيعة لعلي (ع) فبالطبع والضرورة تلفت تلك الكلمات نظر جماعة منهم أن يكونوا ممن ينطبق عليه ذلك الوصف بحقيقة معناه لا بضرب من التوسع والتأويل

تعليقنا الوجيز على هذه الدعوى وأدلتها

أقول (أولا) ان هذه الاحاديث التي اعتمد عليها في بيان أصل الشيعة لا نصح رواية لشيء منها البتة. ولذلك لم يخرج شيئا منها مصنفوا الصحاح كالامام مالك والبخاري ومسلم ولا من بعدهما - ولا أحد من أصحاب كتب السنن كالاربعة المشهورة ، ولا مما قبلها من المسانيد كمسند الامام أحمد ومسند اسحق ابن راهويه ومسند ابن أبي شيبة ومسند الطيالسي، على ما في هذه السنن والمسانيد من الاحاديث الضعيفة ، بل لم يخرجها الحاكم في مستدركه ولا عبد الرزاق في مسنده ولا مصنفه على ما فيهما من الاحاديث الموضوعة وشدة عنايتهما بجمع مناقب علي وآل بيته عليهم السلام ، وانما خرجها بعض الذين عنوا بجمع كل ما روي من الشواذ والمناكير والموضوعات أيضا ولا سيما رواة التفسير المأثور التي عني السيوطي بجمعها في كتابه الدر المنثور ويكثر ايراد مثلها المصنفون في المناقب والفضائل بغير تمييز ، ولا سيما الجاهلين بعلم الرواية ومنهم الواحدي والزمخشري الذين أوردوا في تفاسيرهم الاحاديث الموضوعة في فضائل السور سورة سورة ونقلها عنه البيضاوي. وكلها موضوعة اعترف واضعوها بوضعها عند سؤالهم عنها كما نقله السيوطي في الاتقان (ص ١٥٥ ج ٢) وقد اشتهر عن الامام أحمد انه قال: ثلاثة ليس لها أصل التفسير والملاحم والمغازي - يعني من الاحاديث المرفوعة - وذلك ان اكثر ماروي فيها مراسيل لا يعلم الساقط من سندها وتكثر فيها الاسرائيليات وأقوال أهل الاهواء

(ثانياً) إن مانقله السيوطي منها في تفسيره (الدر المنثور) من الروايات عن ابن عساكر وابن عدي وابن مردويه هو حديث واحد في موضوعه وهو سبب نزول آية البينة وهو لم يذكره في كتابه (لباب النقول في أسباب النزول) لانه من القشور الواهية لامن اللباب ولهذا لم يروها الامام الطبري ولم ينقلها الحافظان البغوي وابن كثير وأمثالها في تفاسيرهم ولا مفسرو المعقول .

(ثالثاً) ان ماينقله السيوطي في هذه الكتب لايقال انه هو الذي رواه كما يقول الاستاذ كاشف الغطاء فيه وفي الزمخشري وابن حجر الهيثمي ويقول مثله غيره من علمائهم في كل ماينقلونه عن أي كتاب ألفه أحد المنسوبين إلى مذاهب السنة ليحتجوا به على أهل السنة كما بيناه في الرد على الاستاذ السيد عبد الحسين نور الدين العاملي، فالفرق بين الراوي والناقل معروف عند جميع أهل الحديث وجميع أهل العلم، وأكثر الذين رووا الاحاديث بأسانيدهم لم يلتزموا الصحيح منها، بل منهم من تعمد رواية كل ماسمعه حتى الموضوع المفترى اعتماداً على التفرقة بينها بمعرفة رجال أسانيدها ، ومنهم من اجتنب الموضوع دون الضعيف، وأكثر الناقلين عنهم من غير المحدثين كالزمخشري والرازي لايميزون بين الصحيح وغيره، وما كل المميزين يلتزمون نقل مايصح أو يبينون درجته إلا قليلا، ولا سيما أحاديث المناقب والفضائل حتى مناقب النبي ﷺ ودلائل نبوته ومناقب آله وأصحابه ومن دونهم فأكثر روايات دلائل النبوة للحافظ ابي نعيم وحلية الاولياء ضعيفة وفيها موضوعات كثيرة

(رابعاً) ان الشيخ احمد بن حجر الهيتمي وهو من أمثل الفقهاء غير المحدثين نقل في كتابه الصواعق ماراً من هذه الروايات التي فيها ذكر الشيعة وصرح بضعف بعضها وكذب بعض و(قال) في ص ٩٤ ان المراد بشيعته فيها أهل السنة والجماعة لامبتدعة الروافض والشيعة ... فانهم من أعدائه لامن شيعته ...وأوردعنه كرم الله وجهه، مااستدل به على ذلك وأعاد هذا في ص ٩٥ ثم قال في ٩٨ بعد لاحالة على ماتقدم فيهم وفي رواية احمد في المناقب التي ذكر فيها هذا اللفظ انما هم شيعة ابليس ثم قال: فاحذر من غرور الضالين وتمويه الجاحدين الرافضة والشيعة . ثم ذكر حديث الدارقطني عن علي وأم سلمة وهو حجة له على الشيعة ولذلك لم يذكر كاشف الغطاء نصه، بل كشف عن بعضه وغطى

بعضاً، فنص الاول « ياأبا الحسن اما أنت وشيعتك في الجنة وان قوما يزعمون انهم يحبونك يصغرون الاسلام ثم يلفظونه، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية يقال لهم نبز، يقال لهم الرافضة، فان أدركتهم فقاتلهم انهم مشركون » وفي رواية أم سلمة زيادة في علامتهم من ترك الجمعة والجماعة والطعن على السلف (قل) وشيعته هم أهل السنة لانهم هم الذين أحبوه كما أمر الله ورسوله ، وأما غيرهم فأعداؤه في الحقيقة الخ

(خامسا) علم من هذا أن قوله إنه ينقل الاحاديث الشريفة في أصل مذهب الشيعة من نفس أحاديث علماء السنة وأعلامهم ومن طرقهم الوثيقة الخ غير صحيح فانه لم يذكر شيئا من طرق الاحاديث التي نقلها وانما نقلها من غير كتب رواتها، بل لا يعرف تلك الطرق ولا رآها، ولو رآها لما عرف صحيحها من سقيمها ، فان ادعى أنه يعرف هذا وذاك ، وأنه قال ماقال عن معرفة، فاننا نسأله لم لم يذكرها؟ ثم نتحداه بأن يبين لنا هذه الطرق وينقل لنا أقوال علماء الجرح والتعديل في رجال أسانيدها ، ومن المعلوم بالبداهة أن نقل هذا بعد تحدينا إياه به لا يدل على أنه كان يعلمه قبله ،وهو على كل حال لن يكون إلا حجة عليه .

(سادسا) قوله إنه لاينقل من طريق الشيعة لئلا يقال ماذكره - فيه أن أئمة أهل الحديث لايقولون مثل هذا القول فيهم كلهم، وقد عدلوا كثيراً من رجال الشيعة في الرواية فليأتنا بما شاء من رواياتهم بطرقهم المتصلة إن وجدت

(سابعا) ان مانقله عن ربيع الابرار للزمخشري المعتزلي هو باطل المتن على حسب أصول المعتزلة والشيعة الذين يحكمون عقولهم في الروايات الصحيحة فيردونها أو يؤولونها بل يؤولون آيات القرآن التي توهم التشبيه بزعمهم فكيف يقبلون حديثا لايصح له سند ، ولا يظهر له تأويل تقبله اللغة، وهو جعل الشيعة كقطار آخذ كل واحد منهم بحجزة الآخر وهي معقد إزاره يكون أوله رب العالمين له حجزة يأخذ بها رسول الله ﷺ (سبحان ربك رب العزة عما يصفون)

وجملة القول ان هذه الروايات التي أوردها الاستاذ كاشف الغطاء لا يصح منها شيء البتة ، ولا يعتد بإيهامه لقارىء كلامه انها أقرب ما علق بذهنه عرضاً من روايات المحدثين الكثيرة المعتمدة أو المتواترة عند أهل الحديث ،وانه

لو شاء لأورد أضعافها وجعلها في معنى الوحي الواجب اتباعه ، فلو كان في كتب الصحاح او السنن شيء منها ولو واحداً لكان أولى منها كلها . ولو رجعنا إلى أسانيدها وبينا علة كل منها لطال الكلام في غير طائل ، وانما البينة على المدعي وانا نتحداه ونتحدى غيره ان يأتونا بسند حديث واحد (منها) رجاله رجال الصحيح

ثم نقول (ثامناً) ان فرضنا أنه صح حديث مرفوع في ذكر شيعة علي فاننا ننقل الكلام إلى المراد منه في اللغة وقوله تعالى في موسى (ع . م) (هذا من شيعته وهذا من عدوه) فنقول انهم هم الذين اعتقدوا انه هو الذي كان على الحق فنصروه على من عادوه وتبرؤا منه وحاربوه من الخوارج، وكذا معاوية وأتباعه خلافاً لابن حجر الهيتمي وأمثاله الذي يخرجون هؤلاء منهم بحجة أنهم كانوا مجتهدين متأولين فلهم أجر واحد ولعلي وأتباعه أجران، فان متبع الحق مستقل الفكر فيه بلاهوى ولا تعصب لمذهب يجزم بأن معاوية نفسه كان باغياً خارجاً على الامام الحق كالخوارج، وانه طالب ملك ، ويؤيد ذلك إكراه الناس على جعل هذا الملك لولده يزيد المشتهر بالفسق . وان بعض الخوارج كانوا متأولين كبعض أصحاب معاوية الذين اعتقدوا انه كان على حق في مطالبته بدم عثمان ، فمجموع كل من الفريقين بغاة خارجون على امامهم الحق ، وأفرادهم يتفاوتون في النية والقصد ، كتفاوتهم في العلم والجهل ، وحكمه كرم الله تعالى وجهه عليهم في جملتهم هو الحق ، وهو ان بغيهم لا يخرجهم من الاسلام ، وان كلمته عليه السلام «اخواننا بغوا علينا» لكلمة لو وزنت بالقناطير المقنطرة من اللؤلؤ والمرجان ، لكانت ذات الرجحان في هذا الميزان

هذا مايصح به تفسير شيعته في عهده ، فان صح اطلاق هذا اللقب على أحد من بعده فيجب اطلاقه على كل من يقولون انه كان هو الامام الحق في زمن خلافته كما كان على الحق في مبايعة الأئمة الثلاثة من قبله، وجميع أهل السنة يقولون بهذا حتى الذين يعذرون بعض المخالفين له بالتأويل على قاعدتهم فيمن يخالف بعض ظواهر القرآن والسنة الصحيحة عندهم متأولا

ولا يصح بوجه من الوجوه أن يفسر لفظ الشيعة في الحديث على فرض صحته بمذهب ديني فان أساس الدين الالهي الوحدة والاتفاق في جميع العقائد والمقاصد

والاصول القطعية والله يقول لرسوله ﷺ (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) الآية ، فالشيع في الدين باطلة والرسول ﷺ بريء منها بنص القرآن فكيف يكون هو الواضع لأصولها

كذلك لا يصح أن يكون الغلاة في علي وأولاده وأحفاده عليهم السلام من شيعته ولو بالمعنى الاعم لان الغلو في دين الله مذموم في كتاب الله وعلى لسان رسوله ﷺ . وقد روي عنه في نهج البلاغة وغيره أنه قال « هلك في رجلان: محب غال ، ومبغض قال » ولا شك في أن من أقبح الغلو فيه أن يقال ان دين الله الاسلام لم يبن لولا سيفه لا.... ولا نحب أن نتوسع في بيان غلو من يبرؤن أنفسهم من الغلو ومخصوصون به من اتخذوه إلهاً على ان الشيعة الامامية يعدون منهم خلفاء مصر العبيديين كما شهد لهم عميدها الشريف الرضي، وهم الذين يقول شاعر المعز منهم فيه

ماشئت لا ماشاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

دع دعايتهم الالحادية التي فصلها المقريزي في خططه . وقال فيهم حجة الاسلام الغزالي : ظاهرهم الرفض ، وباطنهم الكفر المحض . فهل هذا كله مما وضعه النبي ﷺ من أصول الشيعة ؟

وخلاصة الخلاصة ان ما نقله مجتهدهم من الروايات لاثبات أصل مذهب الشيعة لا يصح أن يثبت بها أي مسألة من الفروع العملية كالطهارة والنجاسة والبيع والاجارة ، وانها لا تدل على شيء من أصول هذا المذهب في عصمة الائمة وفي الامامة وفي تحكيم الآراء العقلية في العقائد الدينية ولا من فروعه، كذلك لا يصح شيء مما قاله في عد بعض الصحابة وغيرهم من أتباع هذا المذهب ، وليس من غرضنا أن نتكلم في المذهب نفسه، ولا في فرق الشيعة من غلاة وهم درجات من باطنية وظاهرية ومن معتدلين كالزيدية . فان الخوض في هذا كان أكبر المصائب المزقة للامة الاسلامية. ولا يزال الذين يثيرونها لأجل المحافظة على جاههم ومنافعهم أشد الناس جناية عليها ، وإن سخر بعضهم منها بزعمه الدعوة إلى التأليف بين فرقها ، وجمع كلمتها . وما هو الاداع الى مذهبه ، مضلل لمتبعي غيره ، وهذا هو التفريق بعينه

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا ياسعد تورد الابل

مباحث الربا والاحكام المالية

(كنا شرعنا في كتابة بحث فياض في تحرير حقيقة الربا وأحكامه ومايتعلق به من الاحكام المالية في العقود والشركات والمصارف وغيرها، لكثرة مايستفتينا الناس فيها من الاقطار المختلفة ، بدأناه برسالة الاستفتاء في حقيقة الربا التي نشرتها حكومة حيدر آباد الآصفية الهندية ووزعتها مطبوعة على أشهر علماء الاقطار الاسلامية وسألتهم عن رأيهم في إفتاء مفتيها في المسائل الاربع التي حصرت الموضوع فيها ، وقفينا عليها بتخطئة ما اعتمده محرر هذه الرسالة في حقيقة الربا بناء على مذهب الحنفية وبنى عليه فتواه ، وبينا آراء محققي المفسرين من علماء مذاهب السنة في القرآن والشيعة وأقوال المحدثين والفقهاء ، وجعلنا نتيجة هذه النقول بيان حقيقة الربا القطعي المنصوص فيه وهو ربا النسيئة، وعقدنا بعده فصلا معها في إلحاق الفقهاء ذرائع الربا وشبهاته بالقطعي والظني المنصوص، وابطال دليلهم على هذا الالحاق . وانتهى بنا البحث إلى الوعد بالكلام على الحيل في الربا وغيره في أول المجلد ٣١ (ص ٣٧)

وههنا وقفنا ، وأرجأنا وسوفنا في إنجاز وعدنا ، إذ كنا عزمنا على تحرير الموضوع بالاستقصاء لادلته وفروعه بنصوص المختلفين فيه ، وهو ماحال دونه كثرة أعمالنا الى الآن ، ورأينا أنها لاتزال تزداد ، فرجحنا ان نكتفي بخلاصة آراء فقهاء المذاهب ورأينا فيها وهو مايرى القارىء في الفصل التالي

﴿ فصل في الحيل في الربا وغيره ﴾

الحيلة اسم أو هيئة من حال الشيء يحول اذا تغير حاله او لونه او صفته أو وضعه أو مكانه ، وأصلها حولة كحكمة فقلبت الواو ياء لكسر ماقبلها . قال في الاساس حال الرجل يحول حولا اذا احتال ومنه « لاحول ولا قوة إلا بالله » وحال الشيء واستحال تغير ، وحال لونه ، وحال عن مكانه تحول — الى أن قال — وحاوله طلبه بحيلة اه وفي المصباح المنير : والحيلة الحذق في تدبير الامور ، وهو تقليب الفكر حتى يهتدي الى المقصود ، واصله الواو ، واحتال طلب الحيلة اه

وقال الراغب في مفردات القرآن : والحيلة والحويلة ما يتوصل به الى حالة ما في خفية ، وأكثر استعمالها فيما في تعاطيه خبث ،وقد تستعمل فيما فيه حكمة ، ولهذا قيل في وصف الله عز وجل (وهو شديد المحال) — بكسر الميم — أي الوصول في خفية من الناس الى مافيه حكمة،وعلى هذا النحو وصف بالمكر والكيد لاعلى الوجه المذموم ، تعالى الله عن القبيح اه . وذكر قبل ذلك أن من الامثال « لو كان ذا حيلة لتحول »

وأقول انه قال في المكر والكيد كما قال في الحيلة والمحال انه يكثر استعماله فيما فيه خبث أو قبح ،وسببه كما بيناه في التفسير ان أكثر مايخفي الناس هو مايعد عندهم قبيحا أو ضاراً ولو بأعدائهم وخصومهم ، وما لو ظهر لحبط وفسد عليهم وعجزوا عن اتمامه كما يقع في الحرب وشؤون السياسة . ولم يرد لفظ الحيلة في القرآن إلا فيما هو واجب منها وهو قوله بعد وعيد الذين يتركون الهجرة من دار الكفر والظلم الى الاسلام والعدل (٤ : ٩٨ الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا * ٩٩ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) الآية

وأول من أدخل الحيل في الشرع أبو حنيفة وأصحابه ، وأول من ألف فيها القاضي ابو يوسف ألف كتابا مستقلا سماه (كتاب الحيل) وتبعه فقهاء مذهبهم فهم يذكرون في كتب فقههم أبوابا للحيل التي يصفونها بالشرعية،ووافقهم الشافعية في أصل جواز الحيل،وقال بحظرها فقهاء المالكية والحنابلة

وفي الجامع الصحيح للبخاري كتاب خاص سماه (كتاب الحيل) فتح فيه أبوابا أورد فيها ما صح على شرطه متعلقا بالحيل والدلالة على كراهة الشرع لها . أولها (باب في ترك الحيل وان لكل امرىء ما نوى في الأيمان وغيرها) وأورد فيه حديث « انما الاعمال بالنية » الذي افتتح به صحيحه برواية « بالنيات » وأشار بهذه الترجمة الى ان جميع الاحكام الشرعية من فعل وترك تدخل في عموم هذا الحديث خلافا لمن خصه بالعبادات وما في معناها كالأيمان . وسائر أبوابه في الصلاة والزكاة والنكاح والبيوع والغصب والهبة والشفعة والاحتيال للفرار من

الطاعون واحتيال العامل (أي عامل السلطان) ليهدى له . وقد كتب الحافظ ابن حجر على عنوان (كتاب الحيل) في شرحه (فتح الباري) مانصه :

الحيل « جمع حيلة وهي ما يتوصل به الى مقصود بطريق خفي ، وهو عند العلماء على أقسام بحسب الحامل عليها ، فان توصل بها بطريق مباح الى ابطال حق أو إثبات باطل فهي حرام ، أو الى اثبات حق أو دفع باطل فهي واجبة أو مستحبة، وان توصل بهـا بطريق مباح الى سلامة من وقوع في مكروه فهي مستحبة أو مباحة ، أو الى ترك مندوب فهي مكروهة

ووقع الخلاف بين الائمة في القسم الاول هل يصح مطلقا وينفـذ ظاهراً وباطنا أو يبطل مطلقا أو يصح مع الاثم ؟ ولمن أجازها مطلقا أو أبطلها مطلقا أدلة كثيرة فمن الاول قوله تعالى (وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث) وقد عمل به ﷺ في حق الضعيف الذي زنى وهو من حديث أبي أمامة بن سهل في السنن ومنه قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) وفي الحيل مخارج من المضايق، ومنه مشروعية الاستثناء فان فيه تخليصا من الحنث ، وكذلك الشروط كلها فان فيها سلامة من الوقوع في الحرج ، ومنه حديث أبي هريرة وأبي سعيد في قصة بلال « بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا »

« ومن الثاني قصة اصحاب السبت وحديث « حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها و اكلوا ثمنها » وحديث النهي عن النجش وحديث « لعن المحلل والمحلل له »

والاصل في اختلاف العلماء في ذلك اختلافهـم هل المعتبر في صيغ العقود ألفاظها أو معانيها ؟ فمن قال بالاول أجاز الحيل ، ثم اختلفوا فمنهم من جعلها تنفذ ظاهرا وباطنا في جميع الصور أو في بعضها ، ومنهم من قال تنفذ ظاهرا لا باطنا، ومن قال بالثاني ابطلها ولم يجز منها إلا ما وافق فيه اللفظ المعنى الذي تدل عليه القرائن الحالية . وقد اشتهر القول بالحيل عن الحنفية لكون أبي يوسف صنف فيها كتابا لكن المعروف عنه وعن كثير من ائمتهم تقييد اعمالها بقصد الحق قال صاحب المحيط :

« اصل الحيل قوله تعالى (وخذ بيدك ضغثا) الآية وضابطها ان كانت للفرار من الحرام والتباعد من الأثم فحسن وان كانت لابطال حق مسلم فلا بل هي اثم وعدوان» اهـ

أقول ان هذا الاصل لا ينفعهم فانه تخفيف من الله على نبيه أيوب عليه السلام فهو نص إلهي استثنائي لا يصح أن يقيس عليه من قال ان شرع من قبلنا شرع لنا فضلا عمن يقول ليس شرعا لنا وهو الحق بنص القرآن، أو هو من قبيل خصائص نبينا ﷺ في شرعنا . ومثله احتيال يوسف عليه السلام لأخذ أخيه مع عدم المخالفة لشرع ملك مصر ، وهو مما يستدلون به على شرعية الحيل، فان الله تعالى قال (كذلك كدنا ليوسف) فهو إذا إذن منه تعالى ، فلا يقاس عليه ما يفعل مخالفة شرعه. وسيأتي الكلام على ما أشار اليه الحافظ من الاحاديث في أدلة الفريقين.

ثم كتب الحافظ في الكلام على حديث النية منه ما نصه متعلقا بالموضوع :

«واستدل به من قال بإبطال الحيل ومن قال بإعمالها لان مرجع كل من الفريقين الى نية العامل . وسيأتي في أثناء الابواب التي ذكرها المصنف اشارة إلى بيان ذلك ، والضابط ما تقدمت الاشارة إليه: إن كان فيه خلاص مظلوم مثلا فهو مطلوب وإن كان فيه فوات حق فهو مذموم ، ونص الشافعي على كراهة تعاطي الحيل في تفويت الحقوق فقال بعض أصحابه هي كراهة تنزيه . وقال كثير من محققيهم كالغزالي هي كراهة تحريم ويأثم بقصده ، ويدل عليه قوله « وانما لكل امرىء مانوى » فمن نوى بعقد البيع الربا وقع في الربا ولا يخلصه من الاثم صورة البيع ، ومن نوى بعقد النكاح التحليل كان محللا ودخل في الوعيد على ذلك باللعن ولا يخلصه من ذلك صورة النكاح ، وكل شيء قصد به تحريم ما أحل الله او تحليل ماحرم الله كان إثما ، ولا فرق في حصول الاثم في التحيل على الفعل المحرم بين الفعل الموضوع له والفعل الموضوع لغيره اذا جعل ذريعة له

«واستدل به على انه لا تصح العبادة من الكافر ولا المجنون لانهما ليسا من أهل العبادة وعلى سقوط القود في شبه العمد لانه لم يقصد القتل ، وعلى عدم مؤاخذة المخطيء والناسي والمكره في الطلاق والعتاق ونحوهما وقد تقدم ذلك في أبوابه ، واستدل به لمن قال كالمالكية : اليمين على نية المحلوف له ولا تنفعه التورية، وعكسه غيرهم ، وقد تقدم بيانه في الايمان

« واستدلوا بما أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعا «اليمين على نية المستحلف»

وفي لفظ له « يمينك على مايصدقك به صاحبك » وحمله الشافعية على ما اذا كان المستحلف الحاكم. واستدل به لمالك على القول بسد الذرائع واعتبار المقاصد بالقرائن كما تقدمت الاشارة اليه.

« وضبط بعضهم ذلك بان الالفاظ بالنسبة الى مقاصد المتكلم ثلاثة أقسام: [أحدها] أن تظهر المطابقة إما يقينا وإما ظنا غالبا [والثاني] أن يظهر ان المتكلم لم يرد معناه إما يقينا وإما ظنا [والثالث] أن يظهر في معناه ويقع التردد في إرادة غيره وعدمها على حد سواء. فاذا ظهر قصد المتكلم لمنى ماتكلم به أو لم يظهر قصد يخالف كلامه وجب حمل كلامه على ظاهره، واذا ظهرت إرادته بخلاف ذلك فهل يستمر الحكم على الظاهر ولا عبرة بخلاف ذلك أو يعمل بما ظهر من إرادته؟

« فاستدل للاول بان البيع لو كان يفسد بان يقال هذه الصيغة فيها ذريعة الى الربا ونية المتعاقدين فيها فاسدة لكان افساد البيع بما يتحقق تحريمه أولى أن يفسد به البيع من هذا الظن، كما لو نوى رجل بشراء سيف أن يقتل به رجلا مسلما بغير حق فان العقد صحيح وإن كانت نيته فاسدة جزما، فلم يستلزم تحريم القتل بطلان البيع. وان كان العقد لا يفسد بمثل هذا فلا يفسد بالظن والتوهم بطريق الاولى

« واستدل للثاني بأن النية تؤثر في الفعل فيصير بها تارة حراما وتارة حلالا كما يصير العقد بها تارة صحيحا وتارة فاسدا كالذبح مثلا فان الحيوان يحل اذا ذبح لاجل الاكل ويحرم اذا ذبح لغير الله والصورة واحدة، والرجل يشتري الجارية لموكله فتحرم عليه، ولنفسه فتحل له، وصورة العقد واحدة. وكذلك صورة القرض في الذمة وبيع النقد بمثله الى أجل صورتهما واحدة. والاول قربة صحيحة، والثاني معصية باطلة، وفي الجملة فلا يلزم من صحة العقد في الظاهر رفع الحرج عمن يتعاطى الحيلة الباطلة في الباطن والله أعلم. وقد نقل النسفي الحنفي في الكافي عن محمد بن الحسن قال ليس من اخلاق المؤمنين الفرار من احكام الله بالحيل الموصلة الى ابطال الحق اه

هذا ما كتبه الحافظ في الفتح في حديث النية ونقلناه كله لما فيه من الفوائد ونقول ان فقهاء المذاهب كعلماء القوانين الوضعية يستنبطون الاحكام من

عبارات نصوص المذهب من غير نظر في النيات الباعثة على الاعمال، ولا في موافقة حكم التشريع وعلله الدينية ،وما يرضي الله ويثيب عليه ،وما يسخطه ويعاقب عليه ، ويسمون هذه الاحكام شرعية فيفهم الناس أنها شرع الله الذي خاطبهم به ويحاسبهم عليه فما صححوه منها فهو الحلال الذي يرضيه ، وما أبطلوه فمخالفته حرام يسخطه ، وليس الامر كذلك باطلاقه ، بل الحق ما تقدم آنفا بالاجمال مجملا ، وهاك تحقيق القول فيه مفصلا مؤصلا

التحقيق الفلسفي في المسألة

التحقيق في هذه المسألة ان الاحكام الشرعية لها نصوص تبينها وتضبطها ، وحكم هي المقصودة بالتشريع والمراد منه، وعلماء الحقوق وفلسفة القوانين يعبرون عن هذا الحكم بروح القانون ، وعن الاول بحرفية القانون أو بالمعنى الحرفي له ، وهم متفقون على ان القاضي العادل هو من يجمع في أحكامه بين موافقة نص القانون ومدلوله اللفظي الذي هو هيكله الظاهر ، وبين روحه والمقصود منه في الباطن ، وهو الحق والعدل والاصلاح بين الناس في القضايا الشخصية ، سواء كان الخصم الشخصي فيها فرداً أو جماعة كالشركات أو مصلحة عامة كالحكومة، فاذا تعارض نص القانون الحرفي هو وروحه الذي تتحقق به حكمة الشارع وغرضه فانهم يسمون من يرجح الاول قاضي القانون، ويسمون من يرجح الثاني قاضي العدل والانصاف، والفقهاء يفرقون أيضاً بين مايثبت قضاء وما يجب تدينا

فالمراتب ثلاثة : أعلاها الجمع بين مدلول اللفظ وحكمته المقصودة منه ،وهما كالجسد والروح للشخص ، ودونها المحافظة على الحكمة وارجاع اللفظ اليها ولو بضرب المثل من التأويل ، ودونهما الجمود على الظواهر اللفظية .

وموضوع الحيل في الشرائع والقوانين والعقود والعهود والوعود والايمان والنذور بيانا وافتاء وحكما وتنفيذاً دون هذه الثلاثة وهو التحول عن مدلول اللفظ الحرفي بتأويل أو تحريف أو معارضة تقتضي ترجيح غيره عليه، وانما يفعله الانسان هربا وتفصياً مما يوجبه عليه النص ، والمؤاخذة في القضاء الدنيوي انما تترتب على

مخالفة النص التي تسمى عصيانا للشرع والقانون ، فان كان النص قطعي الدلالة فلا مفر من العقاب على مخالفته ، وإن كان غير قطعي بأن كان محتملا لمعنيين أو أكثر كان الترجيح لاحد معانيه بالاجتهاد ، وكان أقوى وجوه الترجيح مراعاة غرض الشارع وحكمته من النص . وفقهاء الشرع والقانون متفقون على هذا الاصل ، ومن كان يدين الله بعلمه وعمله فهو أولى بمراعاته عند ما يؤلف أو يفتي أو يحكم

فمن رجح معنى على معنى بالاحتمال اللفظي المخالف لروح التشريع وحكمة الشارع منه كان متبعا للهوى لا للحق ، والله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) وهذا الامر والنهي من أصول الشرع الديني الالهي الذي لا ينسخ ولا يتغير بتغير الشرائع ، فهو كالتوحيد في العقائد .

وقد بينا في التفسير وغيره ان نصوص الكتاب والسنة قسمان (أحدهما) ما كان قطعي الدلالة كالرواية وهو الذي عليه مدار التشريع العام الذي يجب اعتقاده والعمل به على جميع أفراد المكلفين وبه تتحقق وحدة الامة الواجبة ، ولا يعذر أحد بالخلاف فيه (وثانيهما) ما كان ظني الرواية أو الدلالة وهو الذي عليه مدار الاجتهاد ، والواجب أن يعذر المختلفون بعضهم بعضا فلا يكون سبب التفرق والعداء بالاختلاف وقد سن النبي ﷺ هذا الاصل لامته ، وجرى عليه خلفاؤه وعلماء صحابته ، وأئمة السلف الصالح من بعدهم قبل حدوث عصبيات المذاهب والشيع ، مثال ذلك أنه لما نزل قوله تعالى (٢ : ٢١٩ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) فهم منها بعض الصحابة تحريم ما إثمه أرجح من نفعه فتركوا الخمر والميسر ، ولم يفهم هذا الآخرون ولعلهم الا كثرون فظل شرب الخمر شائعا مباحا كالميسر الذي كان قليلا ، ولم يأمرهم النبي ﷺ بتركهما لان دلالة الآية على تحريمها غير قطعية الى ان نزلت آيات سورة المائدة القطعية الدلالة فتركهما الجميع وصار ﷺ يعاقب من يشرب الخمر . وهكذا كان ﷺ يعذر المختلفين في فهم كلام الله تعالى وكلامه الظني الدلالة دون القطعي ، وشواهده كثيرة

وأما الفقهاء المقلدون فان منهم من يجعلون نصوص علمائهم أصولا شرعية دينية

يوجبون الاعتماد على مدلولها اللفظي في العمل والقضاء ويبيحون الحيل لتطبيق ذلك عليها وإن خالف ماهو معلوم بنص المعصوم من مراد الله تعالى وحكمته، وما كان مجمعا عليه، فهم من الذين قال فيهم النبي ﷺ « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى؟ قال « فمن ؟ » رواه البخاري ومسلم وغيرهما وشر ما اتبعوا فيه سننهم جعل كتبهم ككتاب الله تعالى في التحليل والتحريم بنصوصها ومفاهيمها، بل جعلها مقدمة عليه في العمل، كما فعل أولئك وقد شرحنا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى (٩ : ٣١ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) (١)

واعلم أن هذه الحيل المبسوطة في كتب الحنفية تكاد تعلم الناس التفصي من أكثر أحكام الشرع الدينية والدنيوية ، فلو لم يتعمد أصحابها نصوص كتبهم إلى نصوص الكتاب والسنة لما كانت جناية على الدين مضعفة أو قاتلة لسلطانه على القلوب كما علمت مما تقدم في الفتوى الهندية من تعريف الحنفية للربا وكونه خاصا ببيع المواد الستة المنهي عنها وما ترتب على ذلك من الاحكام المخالفة لنص القرآن والربا القطعي المعروف عند نزوله ، وعرفه الشافعية بأنه « عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما » فهذا التعريف يدخل في الربا القطعي ما ليس منه ، ويخرج منه ما هو منه، ويحتمل من الحيل مالا يقبله النص الشرعي كما سيأتي

والعمدة عند الشافعية في الحيلة حديث أبي سعيد المتفق عليه في انكاره ﷺ بيع الصاعين من التمر الرديء بالجنيب بصاع من الجيد كالبرني وأمره ببيع الرديء بالدراهم وشراء الجيد بها . قالوا فهذا نص في جواز مطلق الحيلة في الربا وغيره اذ لاقائل بالفرق (للموضوع بقية)

(١) راجع تفسيرها في ص ٣٦٣ من جزء التفسير العاشر

الملك فيصل ـ العبرة بحياته ووفاته

رحمه الله تعالى

ولد فيصل بن حسين في مكة المكرمة وربي في طفولته بالبادية كما كان يربي شرفاؤها وكبراؤها من قبل الاسلام ، ويعلم هذا جمهور مسلمي الارض من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ثم ربي التربية الثانية في مراهقته وصباه في الآستانة عاصمة آل عثمان ، كأمثاله من أولاد كبار شرفاء مكة المرشحين للامارة ، وكان غرض الدولة التركية من ذلك معروفا لجميع الذين يعرفون سياستها في الشعب العربي ولا سيما شرفاء مكة ، ومنها انها كانت تحول دون تعليم نابتتهم في المدارس المدنية الرسمية وغير الرسمية ، وكان آباؤهم يكفونها أمر تعليمهم في المدارس الدينية لعدم شعورهم بالحاجة إليه ، بل كانوا يترفعون عنه لان أرفع أمر النابغ فيه أن يكون قاضيا او مفتيا او مدرساً في مسجد ، فكان قلما يتعلم احد منهم إلا ما يتفق له في منزل أبيه ، ولن يكون تعلما أصولياً يتمكن به علما او فناً يكون به أهلا للنهوض بعمل عظيم ، او مرجعا او مرشداً واماما للعاملين ، ولا لما دون ذلك مما يترفعون عنه من قضاء او افتاء او تعليم ، ولقد مرت القرون وتعاقبت الاجيال ولم تخرج لنا هذه الاسرة الهاشمية رجلا عظيما في علم نافع ولا عمل رافع ، ولا اصلاح ديني ولا اجتماعي ولا سياسي ، وما زالت إمارة الحجاز موروثة فيهم من قبل دولة الترك بقرون ، وما كانت تزداد البلاد في عهدهم إلا خرابا ، ولا أهلها الا تبابا ، ولو قام فيها مصلح عظيم منهم لكان تأثيره في إحياء مجد الاسلام بالعرب ومجد العرب بالاسلام مايفوق تأثير سبعين مصلحا من غيرهم ، لما لهم من المكانة الموروثة في أمتهم ، وان في سيرة فيصل لمثلا لهم وعبرة لاولي الالباب من أمتهم

لم يكن لفيصل قبل الحرب العامة مزية في أسرته ولا قومه تلهج بها الالسنة ، او تجري بذكرها الاقلام ، او تشير بها إليه الاكف او تشخص إليه الابصار ، إلا مابلغني من خبر شجاعته وان أخاه عبدالله فاخر بعض الشجعان وهدده مرة فقال :

تراني أناراعي المدلة (١) تراني أنا أخو فيصل . وكان من تأثير تربية الاستانة في نفسه ان سياسته كانت تركية محضا فلم يكن يفكر في ان لامته العربية وجوداً يجب أن يعني به . ولقد سمعت من لسانه في أول حديث دار بيني وبينه في بيروت (في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٣٣٨ - ٤ فبراير سنة ١٩٢٠) انه كان يرى الخير لوالده وأهل بيته بل لامته في الاخلاص لدولة الترك ودوام الانتفاع أو قال الترقي بهم ، وأنه إنما تحول عن هذه السياسة لما جاء الشام قبيل الحرب وبعدها ورأى قومه كلهم على خلاف رأيه ، على حد قول الشاعر

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

وانه يومئذ اتفق مع اخواننا في الشام على العمل للقضية العربية وانتظم في جمعيتهم السرية . ثم كان من عمله في الثورة العربية التي أعلنها والده ما كان به أظهر رجالها ، وحارب الترك مع الانكليز حربا كسبته وكسبت العرب ثناء رسمياً له قيمة سياسية عظيمة ، ودخل دمشق عقب انسحاب الترك منها دخول الفاتح الظافر ، وسافر بعد ذلك الى أوربة وشهد مؤتمر الصلح الاكبر ، ودخل في إثر ذلك أبواب السياسة . ثم بايعته الامة السورية وجعلته ملكها ، ثم نادت بسقوطه وتحدثت بالهجوم والدمور عليه للفتك به ، فوضع الحرس الحجازي المسلح على بابه ، إذ أذيع فيها قبوله لانذار الجنرال غورو الخزي ، وزاد السخط عليه بدخوله دمشق في الليلة التي دخلها الجيش الفرنسي محتلا لها ، مؤملا أن يرضى ببقائه ملكا فيها ، ولكنه أخرجه منها ليلا ، ثم كان من أمر توليه ملك العراق ما كان ، وما لقي فيه من مقاومة وما طرأ عليه من أطوار ، وما زال يرسب ويطفو ، ويسف ويسمو ، حتى صار سياسي الامة العربية المحنك ، وجذيلها المحكك ، وتجلى فيه من عبقرية الذكاء والحزم ، ونباهة الشأن وادارة الملك ، ما انتهى به امره الى ما علمنا من ثقة به موطدة ، وآمال سميه معلقة ، وأحزان عليه صادقة ، وألسنة باطرائه ناطقة ، دلت على ان المستقبل الذي أمامه كان عظيما ، وأنه كان قومياً عاما ، لا وطنياً خاصاً كان لفيصل كثير من أخلاق الزعامة والرياسة ، وشمائل السياسة والكياسة ،

(١) المدلة لقب فرس من جيادهم يفخرون بها

كالسخاء والنجدة ، والحلم الواسع ، والصبر على المكاره ، وقوة الامل ، والدهاء والمكر ، وكان جذابا خلابا ، عذبا سائغا ، هينا لينا ، سهلا متواضعا ، سريع الغضبة سريع الفيئة ، لا ييأس ولا يوئس مخالطه منه ، وكل أولئك من أخلاق الزعامة والرياسة ، وما كان يخلو من بعض الصفات القاطعات لطريقها ، والمانعات لتحقيقها ، منها مبالغته في المواتاة لكل معاشريه والاستجابة لمطالبهم المتناقضة ، ومساعدتهم على الاعمال المتعارضة ، ومنها انه كان على شدة صراحته يكاد يتعذر على أقرب الناس اليه أن يعرف كنه سريرته ، ويثق باصراره على رأيه ، وثباته على مايبديه له منه. هكذا كان عهدي به في دمشق

ولولا ما أوتي من المرونة والحلم ، والحرية واللطف ، والاعتبار بالحوادث ، وممارسة الكوارث ، وتربية نفسه بها ، والارتياح الى اعطاء كل ذي حق حقه فيها ، لكان الخوف عليه أكبر من الرجاء فيه ، وبهذا فضل والده وأخاه اللذين سبقاه الى التفكر في القضية العربية ، والخروج على الدولة العثمانية ، من قبل أن يتاح لهما القيام باعلان الثورة ، ويفتح لهما باب الرجاء في سيادة الامة

ليس من مذهب المنار تدوين وقائع التاريخ ، ولا من مشربه سرد المناقب والمثالب ، وانما صاحبه قرآني يبحث عن العبرة ، ويجليها في قالب الحكمة والموعظة الحسنة ، وقد علم الذين تتبعوا ما كتبت في المسألة العربية ، والواقفون على الكثير من عملي فيها بالمشاركة او بالمعاشرة ، انني اشتغلت مع هؤلاء الثلاثة فيها اشتغال تجربة لهم لوجودهم في الميدان لا اشتغال واثق بهم ، وان التجارب أسفرت عن خيبة الامل في كل منهم ، واعتقاد انهم مستسلمون للسياسة البريطانية ، التي أعتقد أنها موجهة الى القضاء الابدي على الامة العربية ، وعلى تجديد مجد الاسلام أيضاً

ثم تجدد لي أمل في امكان الانتفاع بدهاء الملك فيصل وحنكته ومركزه العظيم في انعاش سورية التي تتردى في مهاوي الهلكة بشدة شنآن فرنسة للاسلام ، وسياستها المستعجلة المتهورة في ذلك ، التي لا تقبل هوادة ، ولا يتخلل حملاتها العنيفة فترة ولا هدنة ، ولا تخفف شدتها رأفة ولا رحمة

تجدد عندي هذا الامل في العام الماضي وأظهرته في هذا العام ، فعلمت انه

جدير بان يكون رجاء لاتمنياً ، وان تكون دائرته أوسع من سورية ، وان مودة فيصل للدولة البريطانية لاتحول دون الانتفاع به فيما يتأتى بخطرها الذي يخشاه العرب قليلا ، او لا تزيده دنواً . إذ بلغني انه قد اشتد شغفه بفكرة الوحدة العربية ، وانه يدرس كل ما يزيده علما بالاستعداد لها مما كتب . بلغتها وباللغات الغربية ، كتاريخ الوحدة الجرمانية والوحدة الطليانية .

ثم علمت علما صحيحا انه موطن نفسه على السعي لسورية وفلسطين معا ، متوسلا بنفوذه عند الدولة الانكليزية ، وأنه يعتقد إن وجود الملك عبد العزيز ابن السعود في الحجاز رحمة للعرب والجزيرة ، وأنه لا يوجد في الامة العربية من يقدر على حفظ الامن فيها ودرء الفتن وتقدم العمران مثله أو غيره ، وأنه يجب الاتفاق والتعاون معه ، على انه كان يرى مع هذا انه لا يرجى ان يكون لهذا الرجل الفذ الوحيد في مواهبه ، من يستطيع من ولده أو غيرهم ان يضطلع بما اضطلع هو به ، وقصارى هذه الآراء والافكار انه يجب أن يكون هو قطب الرحى للامة العربية والمؤسس لوحدتها

الامير عبد الله

ولعل اخاه الامير عبد الله لو ابتلي بمثل ما مارسه من خطوب ، وتدافعه ما أشرنا إليه من طفو ورسوب ، لمحصت ما في صدره من الشغف بلقب الملك وعظمته الباطلة ، ولو كان هبة تستخدمه بها دولة العدو الغاصبة ، وسكنت بعض ماقلبه على ابن السعود من الضغن والحفيظة ولكن كان من سوء حظه وحظامته انه تأمر على بدو جاهلين ، وإن كانوا مسلحين ، وحضر اكثرهم متملقون مسترزقون ، والمجاهدون منهم قليلون مستضعفون ، فلم يلق منهم ما لقي فيصل في الشام ثم في العراق من معارضة ومناهضة ، ومشادة ومحادة ، كانت خيراً له من المواتاة والموادة ، واني ابسط ما بلوته بنفسي من خبر الاخوين من مبتدئه الى منتهاه بالايجاز .

عرفت الشريف عبد الله في الآستانة سنة ١٣٢٨ (الموافقة سنة ١٩١٠ م) وكان عبيد الله أفندي مبعوث آيدين وصاحب جريدة العرب الخادعة يطعن في والده

الشريف حسين امير مكة المكرمة طعنا مسموما نافذا ، ولم يدافع عنه أحد من أبناء الامة العربية ، وكان مع هذا قد أطراني في جريدته اطراء ظاهرا وسماني مجددا ، ثم لما شعر بنجاح مشروع الدعوة والارشاد الذي دعوت اليه الدولة الاتحادية قلب لي ظهر المجن ، واتهمني بالتفريق بين الترك والعرب ، فقامت عليه قيامة الجرائد العربية في سورية ومصر والمهاجر السورية وفي الآستانة نفسها أيضا ، فافترصت هذا وقلت للشريف عبدالله إنني أريد أن اسر اليك حديثا ، فهش لي وأقبل علي ، فقلت له الا ترى ان هذا التركي المتعصب البذيء يطعن في والدك وهو سيد العرب فلا يلقمه أحد منهم حجرا ، حتى اذا ماقال في كلمة طعن ، مع كلام كثير في الثناء والمدح ، فوقت اليه السهام ، وسددت الى صدره أسنة الاقلام ، وأنا دون والدك مقاما ومنصبا ، فلماذا ؟

أليس إخواني العرب يرون أنني أعنى بقومهم ، وأبذل بعض الخدمة لهم ؟ وانهم لايرون لاحد منكم لقومه عملا ، ولا يسمعون منكم في مصلحتهم قولا ؟ قال نعم واني لاشكر لك مصارحتي بهذه الحرية ، وبهذا فتح باب الكلام بيننا في المسألة العربية ، ودعاني الى طعامه في دارهم في محلة بيوكدره على البوسفور وامتدت المودة

ولما زار مصر سنة ١٣٣٠ ونزل ضيفا على الخديو في قصر عابدين هو وأخوه فيصل زرته واطلعته على قانون (الجامعة العربية) فابتهج به ورغب الانتظام في سلك الجمعية ، فحلفته يمينها الغليظة العمومي ، وأخذت عليه ميثاقها الشديد ، وأطلعني على مابعثته به حكومة الدولة إلى والده ، وهو قتال السيد محمد الادريسي ، فكاشفته برأيي في ضرره فوافقني عليه ، وعاهدني على بذل جهده ، في إقناع والده به .

(للكلام بقية)

ثورة المرأة الاباحية

وخطرها على الاسرة فالامة

لقد كان من فوضى الاقلام ، وحرية الاباحة والالحاد ، أن تصدى للتحرير في الصحف ، وتصنيف الكتب والقصص ، أفراد من المتفرنجين الاباحيين ، انتحلوا لانفسهم دعوى التجديد وزعامة الحضارة فوجهوا دعوتهم الى النساء والشباب ، لانهما أسرع انخداعا واسلس قيادا ، وما زالوا يشوهون لهم كل قديم كانوا عليه ، ويزينون لهم كل جديد ضار يغرونهم به ، ولا سيما حجاب النساء وعفافهن ، ولزوم بيوتهن ، وطاعة رجالهن ، وخدمة أولادهن ، « ولكل جديد لذة » حتى هتكن الحجاب ، وألقين جلابيب الحياء ، ونشز الازواج على بعولتهن ، وتمرد العذارى على آبائهن ، وخرجن في الشوارع والاسواق « كاسيات عاريات ، مائلات مميلات » كما ورد في الحديث الصحيح وصفا لنساء سوف يأتين ممن سيدخلن النار ، ثم صارت الجمعيات النسوية يجمعن بين النساء والرجال في محافلهن الخاصة بهذه الصفة للرقص المشترك وتعاطي كؤوس الخمر

ثم صار هؤلاء وهؤلاء يخرجن من البيوت الى سواحل البحار بأزر الحمام يتبخترن بالشوارع مرحات فرحات ، مزوزكات متربحات ، حتى اذا التقين بالرجال على الشاطيء خاصرنهم الى حيث يسبحن معهم فنونا من سباحة الاباحة ، لم يبق معها للدين ولا للشرف ولا للعفاف ولا الصيانة قيمة

ثم كان من عاقبة هذا الاختلاط والامتزاج ، أن قل الزواج ، وتفاقم فشو الخنا ، واستشرى خداع الشبان للعذارى عن عفافهن بعد عشرة طويلة أو قصيرة بحيلة اختبار الخطبة ، وكثر تقتيل النساء ، وتقاتل الرجال لاجل النساء ، وتضاعف عدد اللقطاء ، اكتظت المحاكم الشرعية بقضايا الطلاق ، وطلب فسخ عقد الزواج وطفقت الصحف تنشر من فضائحها ما يعلم الجاهلين والجاهلات طرقها ، ويجريء الفريقين منهم على طروقها ، وانتهى الفساد في البيوت وخارج البيوت الى دركة كثرت منها شكوى الكتاب حتى المفسدين منهم

وقد نشر في هذا الصيف المتولي أحد كبار الادباء البارعين (ع . ع) * مقالات بليغة في جريدة البلاغ الشهيرة عنوانها العام (مصر الشاعرة) وصف فيها هذا الفساد وخطره على الاسرة فالوطن فالامة وصفا فلسفيا شعريا، كان لها صدى في جميع الجواء، حمل فيها حملات صادقة على الثائرات على الدين والحياء والادب والتقاليد المتمردات على حقوق الزوجية الطاهرة المطهرة، وصفات الامومة المقدسة، شكت من لذعاتها امرأة شاعرة، فكتبت اليه تبوح بشكواها، وتستعطف قلبه القاسي على بنات جنسها، وتحرضه يحق على الرجال الذين هم المفسدون للنساء، فأجابها بجواب فصيح صريح، يمثله وجدان مسلم شريف، قرأته فأبكاني، فأحببت أن أنقله مع الكتاب لقراء المنار وأسجلهما فيه، وها هما ذان :

الرجل والمرأة

(قال) حمل إلي البريد في الاسبوع الماضي هذا الكتاب :

سيدي الاستاذ المحترم

إني أقرأ الرسائل القيمة التي تكتبها عن مصر الشاعرة بشوق وإعجاب . لانها تكشف عن صفحة عظيمة لمصر العزيزة، ولا يفوتني أن أنبه إلى قراءتها أبنائي الناشئين وبناتي الناشئات لحسن أسلوبها وعلو مغزاها . ولكن ياسيدي دهشت كل الدهشة حين قرأت مقالك الاخير فوجدتك فيه ثائراً على المرأة بثورة شديدة عنيفة، وفي هذا الحديث الطويل رأيتك تتكلم عن هذا المخلوق المسكين بروح تنم عن المقت والحقد والكراهة، فهل يدرك الاستاذ ما في هذه الكتابة بهذه الروح من الخطر الشديد ؟ وفرق ياسيدي بين من ينصح ومن يثور ، والمرأة المصرية أولى بالتشجيع وأحق بالانصاف منكم يامعشر الكتاب، وهي لا تنكر

* الذي بلغني ان صاحب هذين العينين البصيرتين هو الاستاذ عبدالله عفيفي شاعر القصر الملكي العالي

عليكم أن ترشدوها الى مواطن الضعف ولكن بروح العدل والرفق، وأنا كامرأة مصرية في حاجة الى من ينصحني ، ولست في حاجة الى من يهينني ، ولماذا ياسيدي تخشى على الرجل الوقوع في شرك المرأة الخادعة ولا تخشى على المرأة الوقوع في شرك الرجل الخادع ؟ ان الرجل ياسيدي هو ربان السفينة فهو مسئول أولا وأخيراً عن كل مايصيبها من عطب وما يصيب ركابها من خطر، فاما أن تكون القيادة له واللوم على غيره فذلك ظلم وإجحاف

وفي الختام أرجو ألا أكون تجاوزت الحد في خطاب الاستاذ الاديب الكبير وتفضلوا بقبول فائق التحيات ف.ك

والكاتب يشكر للسيدة الفاضلة عنايتها بمصر الشاعرة، ويسره أعظم السرور أن يجد في العنصر النسوي اقبالا على جانب من جوانب المجد الادبي للوطن الكريم

أما ثورتي المنيفة ياسيدتي المهذبة فلم أعلنها إلا على المرأة الثائرة العنيفة، والثورة عدل ونصفة ، والعنف على العنف رفق ورحمة

ان المرأة المصرية تسير الآن في ثورة عصبية حادة، وفي يمينها السلاح القاتل ، وفي يسارها النار المحرقة، وتحت قدميها الهاوية السحيقة، وهي حين تسقط يسقط معها الطفل ، ويسقط معها الرجل ، ويسقط معها الوطن ، وهي لاتسقط إلا مرة واحدة ، ثم لاتعود إلى النهوض أبد الدهر

نحن لانتحدث ياسيدتي عن تحديد التبعة بين الرجل والمرأة فكلاهما له عقل يزجره اذا انحرف، ودين يهديه اذا ضل ، وكلاهما على سواء في الجزاء والمكافأة وفي الثناء والمذمة ، ولكن الفرق البعيد بينهما في قوة الاحتمال عند الصدع، وفي امكان النهوض عند العثار، وفيما يلحق المجتمع الانساني اذا سقط من رض وانكسار

فالرجل قد يكبو ثم ينهض ، وقد يميل ثم يعتدل ، وقد يأثم ثم يبر ، وقد يجمح ثم يتئد ، ولكن الى اليوم لم يخلق الله المرأة التي تسقط السقطة ثم تعود إلى ما كانت عليه من خير وصلاح ، لانها تقاوم الاثم بضميرها المرهف ، وحيائها القوي، وهو يقاومه بعقله ومنطقه ، واذا انثلم الضمير انكسر ، واذا انهتك الحياء زال ، أما العقل والمنطق فقد يخطئان ثم يصيبان ، وقد يغيبان ثم يحضران

وهنالك الفرق البعيد في أثر الانحراف ، فالرجل ينحرف وفي بيته المرأة الصالحة تصون الاسرة وترعى البنين، والمرأة تنحرف فلا تصلح أن تكون زوجة ولا تصلح أن تكون أما ، ولا تصلح أن تكون رباط أسرة ، ولا تصلح أن تكون قوام بيت ، بل كل أولئك يكون مائلا متداعياً مصدوعا ، والاسرة هي العضو في جسم الوطن ، فاذا مزق العضو سرى الفساد منه الى الجسم كله

فنحن اذا صحنا هذه الصيحة الصارخة ، واذا ثرنا هذه الثورة الصاخبة ، فلأننا نرى الجذام قد أخذ يدب الى جوف الوطن ، ويسير الى قلبه ، ولا بد من حسم الداء قبل أن يستفحل ، ولا بد من وقاية القلب قبل أن ينتهك ويفسد

لا تعجبنك ياسيدتي هذه القيثارة الجوفاء التي يغني عليها شباب الكتاب في هذا البلد نشيد الاعجاب بالمرأة ، والاغراء بالمرأة ، فان من الطير ما يميل باذنه الى الصوت العذب والايقاع الحسن والنغم الجميل، فلا يزال يدنو منه حتى تأخذه الحبائل ، فلا يجد في الارض مقعداً ولا في السماء مصعداً

إن هذا الكاتب الذي تأخذين عليه كتابته الثائرة عن المرأة المصرية قد كتب ثلاثة مجلدات في تاريخ المرأة ،وهو فخور بانه نشر الصفحة المطهرة لاعظم امرأة في الوجود ، وهي المرأة المسلمة في عصر عظمة الاسلام، فهو إذن لم يكتب ما كتب عن حقد وموجدة، ولا عن مقت وكراهة، ولكنه كتب عن علم وبصيرة، وعن حزن واشفاق ، وهو لا يزال منذ خمس عشرة سنة يبكي زوجته التي لم تدم له أكثر من عام ونصف عام، ولا يزال يتخذ قبرها روضته ، ويتخذ ذكرها سلوته ، الى اليوم وبعد اليوم ، فاذا رأيتني قسوت على المرأة فلأنني ضنين بها على الحال التي حالت عليها ، وعلى المآل الذي آلت اليه

فقسا ليزدجروا ومن يك راحما فليقس أحيانا على من يرحم

ان المرأة ياسيدتي ثائرة في هذه الايام على أنوثتها الكاملة، والانوثة الكاملة هي الفطرة التي فطر الله عليها المرأة وركب منها فضائلها ومزاياها التي لا يسمو اليها الرجل ، فهو مبعث الرحمة الشاملة ، والوجدان اليقظ، والحياء القاني، والحنان

الفياض ، وهي السبيل إلى الوفاء للبيت ، والولاء للزوج، والفناء في الولد، والايثار للاسرة ، والتضحية في سعادة الجميع، وهي سر القوة المعنوية ، والنفوذ الروحي ، والسلطان النفسي للمرأة، وهي آية مايجده الرجل من الراحة والسكون حين يثوي إلى زوجته الصالحة ، وهي التي يقول فيها الباريء الحكيم جل ذكره وتعالت آيته (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فاذا تأثرت هذه الانوثة بالنقص والفساد، أو الميل والانحراف، انطفأ نور ضميرها ، وذهب خفر حيائها ، واتضع سمو روحها ، وانفصمت عروة قوتها ، وانهتك ستر صيانتها ، وأصبحت متعة مبتذلة يشمر من تذوقها أنه محتاج الى سواها

وفي كثير من المواطن تكون آثار الرجولة الكاملة ، فالامومة في نظر الدين الحنيف، وفي نظر العرف الرشيد، أسمى وأفضل من الابوة، وأسو الجراح، وجبر العظام، وري العطاش ، وتأسية المصاب ، واغاثة الملهوف، أبر وأطهر من تفجير الدماء ، وتمزيق الاشلاء، وإثارة النار الشعواء، والداهية الدهياء، وهي في أنوثتها الكاملة أوثق دينا ، وأنصع يقينا ، وأمتن إيمانا ، وأخلص احسانا من الرجل

والاسلام في نشأته الاولى ، وفي عظمته الرائعة ، وفي قوته الصادعة ، وفي مجده الخالد ، وفي فتحه العظيم، مدين لتلك القوة المعنوية التي استوحتها المرأة من أنوثتها الكاملة . وإن أول صوت آمن بالنبي وشد عضده ، وقوى عزمه، وآزره على الخطوب ، وأيده في مغالبة الدهر هو صوت امرأة ، حتى اذا ماتت تلك المرأة العظيمة بكاها الرسول الكريم بكاء على حده القاطع وركنه الشديد

فهل بقيت للمرأة تلك النفس الراضية المطمئنة، وتلك الروح الشفافة العالية، وتلك القوة المعنوية القاهرة ؟! لا ياسيدتي الفاضلة ، لم يبق للمرأة من هذه الآيات الثلاث آية واحدة

كانوا يقولون انتظروا حتى تسفر المرأة فهي محجوبة لاترى النور ولاتحس الحياة ، وهي مكتوفة لاتملك الامر ولا تقوى على العمل ، وهي مستعبدة لاترفع الرأس ولا تدفع الهوان ... فالآن قد سفرت المرأة عن وجهها ويديها ، وعن

صدرها وذراعيها، وعن حيها ودارها، وعن ليلها ونهارها، وعن رغائبها ومآربها، وأصبحت تملك أمرها كله، وحقها كله، فأين هي الآن من فطرة المرأة وفكرة المرأة؛ أين أثرها الحسن الجميل في البيت والاسرة، وفي الزوج والولد، وفي البر والرحمة، وفي الحنان والاحسان؟

لقد نالت المرأة الحرية فكانت حريتها حرية النفس والعاطفة، لاحرية العقل ولا حرارة الدم فاندفعت كما ينبثق الماء الكثير من الثقب الصغير، وأخذت تنظر الى البيت كما ينظر السجين الطليق الى سجنه القديم، وسارت هي من طريق والرجل من طريق والولد من طريق، وتهادت الفتاة في وضح النهار وفي دلج الليل مع ابن العم وابن الخال على الحقيقة والمجاز، ومع من تدعوه الخطيب أو القريب إلى مسارح السينما وأندية اللهو؛ والى حيث لايعلم الاب والام، والى حيث لاينظر الرقيب والحسيب! فهل هذا العبث من الحرية هو ما كان يطلبه أنصار النور وأنصار السفور؟

لقد امتشقت المرأة سلاحا من الجرأة وعدم المبالاة، وكان هذا الاسلوب السخيف من حرية النفس والعاطفة جلاء لهذا السلاح القاتل المسموم، وسبيلا إلى هذا البلاء الشامل المحتوم، وكان هـذا المزمار المشئوم الذي يحمله شباب الكتاب أو المتشببون منهم وسيلة إلى ارتداد السلاح الى صدر المرأة الضعيف، واصابتها في الصميم من قلبها الصغير

اسمعي ياسيدتي وأرعيني سمعك فاني سأقص عليك قصة وقعت وكنت أحد شهودها، ولو لم ترها عيناي، وتسمعها أذناي لما أمكن أن تخطر في بال، أو تجول في خيال، وهاقد مضى على ذلك الحادث اثنان وعشرون يوما ولا والله مافارقني لحظة من الزمن ولا خطرة من التفكير

كان ذلك في القناطر الخيرية وكنت إذ ذاك مع ولدي الصغيرين، وكان كل شيء في الوجود حسنا جميلا، وكان بي زهو الشريف المقبل حين يدرج إلى الروض، لولا أنني لم أحمل اليه الشراب لاني لا أحب الشراب

ورأيت ولدي قد استخفتهما الطفولة وازدهاهما المنظر البديع فأخذا يسرحان بين الظلال ، وأخذت أكتب عن « مصر الشاعرة » وكان هذا الذي أكتبه هو المقال الثالث في الشريف العقيلي ، وكنت أرى لهذا الشريف حقا على ألا أكتب عنه إلا بين الزهر والماء

كتبت ثلاثة أسطر ثم رفعت رأسي فرأيت رجلا حسن السمت، ممشوق القامة، منسق الثياب، يصعد بأقصى سرعته درج مقصف الحديقة حيث كنت ولم يكن غيري هناك.

ونظرت الى الرجل فاذا هو صديق يجمعني به عهد الطلب وصلة الادب فناديته ، ولكنه كان في شغل عني بما هو فيه ، فلم يسمعني ولم يرني، واكتفى بان أرسل إلى المقصف نظرة لهيفة لم تستغرق أكثر من ثانيتين ، ثم عاد يثب الى الارض وثبا، ويجري ملء عنانه باحثا بين ربى الحديقة وخمائلها ، وبين ظلالها ومناهلها، ثم عاد الى المقصف أسرع مما مضى، فلم أجد بداً من أهدي ، لهفة صديقي القديم وإن ظن بي بعض الفضول

هنالك اعترضت طريقه وقلت له تعال يافلان! ماهذا الذي أنت فيه؟ وأراد صديقي ان يطوي صدره على سره ، وان يطبق فاه على غليله ، فهز رأسه وقال : لاشيء . قلت كلا بل هناك شيء خطير ، وأنت هنا وحدك لايعينك أحد، وأنا أولى بك من أي رجل سواي ، قال : إذن فدع مكانك وأقبل معي ، قلت: أنا معك وأومأت الى ولدي فأقبلا ، ثم قال لي وأنا أسير معه على غير هدى : لقد حدثني في التليفون من أثق به انه رأى زوجتي في مقصف محطة القاهرة مع رجل لايعرفه، وعرف من حديثهما أنهما ينتظران القطار الذاهب الى القناطر، وأصغى صاحبي اليهما فوجدهما يتكلمان عن صلة مجرمة وحب أثيم . هناك اتخذت سيارة من قلب القاهرة فأخذت تطوي الارض حتى بلغت هذا المكان ، قلت ومالك لاتفترض الكذب والوقيعة في حديث محدثك ، قال كلا ان محدثي من أقرب الناس إلي ، وأعطفهم علي ، وأحبهم الى نفسي، ولا غاية له في الكذب، ولا مأرب له في الوقيعة ، قلت ان القطار الذي أشار اليه لم يأت بعد وهنا خرج صاحبي عن

حيرته وتنفس الصعداء. وقال هلم بنا الى المحطة واتخذنا السيارة الى المحطة، وأوينا الى ركن من مقصفها، وما يزال على وصول القطار عشر دقائق

ومرت هذه الدقائق كأنها حين من الدهر، وكنت أشعر أننا قادمان على حدث عظيم، وأخذت أحادث صاحبي حديثا متقطعا لأشغله عما هو فيه من رجفة وذهول، فيعطيني عينه وأذنه، ويصرف عني قلبه وإدراكه.

وأقبل القطار ثم وقف فقلت لصديقي: اسكن ولا تضطرب وإلا أفلت الامر منك، وكاد المسكين بن حين رأى زوجته وهي تسير بجانب رجل ينطق كل شيء فيه بحقارته وبذاذته ووخامة ظله وتبطله، وانه ممن يعيشون على حساب النساء، وأراد الصديق أن يثب ليعترض الطريق فقلت له رويدك، ونظرت الى المرأة فرأيتها تسير بجانب الرجل الاجنبي بغير حذر أو مبالاة، وهي تكلمه في صفو لايشوبه كدر، وسرنا وراءهما حتى ركبا إحدى المركبات اليدوية فلم يجد الصديق المسكين بداً من اعتراض المركبة

ونظرت المرأة الى زوجها ! فهل تحسبها صعقت الصعقة القاتلة ؟! هل اضطرب قلبها وماد جسمها واختلفت قدماها فسقطت بغير حراك ؟! هل ذهبت الى القطار فألقت بنفسها تحت عجلاته ؟! هل أغرقها العرق وأدركتها الذلة فتوارت عن عيون الناس ؟! هكذا كنا نتصور لو ألفنا رواية خيالية عن سقطة المرأة وخيانة الزوجة، ولكن لم يكن وربك شيء من هذا ! بل انها نظرت إلى عشيقها الصعلوك وقالت له هاهو ..! تعال تر من معه من النساء ..! وقالت لزوجها : أنا جئت به ليشهد عليك، فقد قالوا لي انك مع امرأة لابد ان أعرف أين هي؟ ولا بد ان أذهب بها وبك الى البوليس !! وتكاثر الناس على موقف المرأة التي تقوم بدور تمثيلي لاتحسنه أية ممثلة في مصر وغير مصر. ولم يجد صاحبي بداً من العودة الى القطار وكان قد بقي على قيامه خمس دقائق ولم تتركه المرأة حتى تبعته وصاحبها الصعلوك يقول لها بمرأى ومسمع من الناس. تعالي ياشيخه ! سيبك منه !! وهي تقول لا. لابد ان أذهب فأخلص منه. واجتمع الزوجان في ديوان من الدرجة الاولى حيث

يركب الزوج وجلست مع ولدي في ديوان بجانبهما، وركب صاحبها في مركبة الدرجة الثانية حيث قطعت هي التذكرة

وأشفقت على صاحبي من هذا الموقف فوقفت في ردهة العربة وكانت المرأة الفاضحة المفضوحة لاتزال تصيح وتصخب وهي طوراً تقول أرني أين صاحبتك أين خبأتها! وتارة تقول مشيت معه! فليكن! سأمشي كل يوم مع واحد! سأمشي مع من أشاء! أنا لا أحبك! أنا أكرهك! انت شريكي؟! ولم يزد الرجل الكريم الشريف على أن فصلها بانطلاق. وأشفقت عليه من هذا الموقف المر فاجتذبته وانتقلت به إلى حيث أقيم وأصيب السكين برعاف نازف تفجر منه دمه حتى جرى على أرض العربة، ورغم عنايتي به لم ينقطع النزيف حتى انتهينا إلى محطة القاهرة فأسعف بالعلاج

ولهذه المرأة بنون وبنات ولها مع زوجها أعوام وأعوام، وبينما الدم ينزف من الرجل والخطر يحيط به كان يتكلم في غيظ محرق وفي بكاء مر عما بذله لهذه المرأة من ود واخلاص، وعما قدمه لها من بر ومعروف

أرأيتك ياسيدتي الفاضلة المهذبة كيف يكون جموح المرأة اذا اندفعت، وكيف يكون استهتارها اذا انكشفت؟ وكيف تكون سقطتها اذا انطفأ نور الضمير، وارتفع عنها ستر الحياء؟!

أكانت تصلح هذه المرأة لو خفي أمرها عن زوجها أن تكون زوجة، وأن تكون أما، وأن تكون عماد بيت ورباط أسرة؟

لقد قصصت هذه الفاجعة على صديقي ضابط مكتب الآداب وكنت أظنها منقطعة النظير فابتسم وقال: وكم في البلد من فجائع وكم فيها من أقاصيص.! وأخذ يحدثني عن أشباه تلك الفاجعة وعما هو أشد هولا وأدل على عدم المبالاة منها، ولا أريد أن أقص عليك بعض ماقص علي ففي أيسره مايجف من ذكره القلم واللسان، وكله يدل على اننا نترامى في هاوية مظلمة الطريق سحيقة القرار

أتعرفين ياسيدتي كم عدد المواليد الابرياء الذين قتلوا يوم ولدوا، ومنهم من ذبح بمدية كما يذبح الجمل الصغير، ومنهم من ضغط على عنقه بيد قاتلة جبارة فاختنق، ومنهم من ترك حبله السري فتسمم دمه، ومنهم من بقر بطنه وألقي في صناديق

القمامة ، ومنهم من قذف به في بئر معطلة أو ساقية مهجورة،ومنهم من وئد حياً في التراب ، ومنهم من ترك بين المقابر فأكلته الكلاب .؟!

مائتان وخمسة وأربعون ضحية ضحى بها في خلال عام واحد بمدينة القاهرة وحدها فذهبت تشكو إلى بارئها ظلم الابوة السافلة الفاسدة والامومة السفاحة الجاحدة

مائتان وخمسة وأربعون ضحية ترى الموت الاحمر يوم تتنسم الحياة، وتساق إلى العدم يوم تساق الى الوجود ، وما أسلفت من ذنب،وما اقترفت من جريرة، وما أساءت إلى انسان، فبأي ذنب قتلت هذه الضحايا البريئة؟ ولأي سبب قتلت؟ أليس ذلك نتيجة اندفاع الفتاة من غير رقيب أو حسيب .!

وما يدرينا لعل من لم تصل اليه الايدي ومن لم تهتد إليه العيون من تلك الضحايا أضعاف من كشفته المصادفات. ومن أعجب العجب ان هذه الحوادث كلها إلا ثلاثاً منها قيدت ضد مجهول،فأين هو هذا المجهول ومن هو هذا المجهول؟ وتأبى شرطة المدينة إلا أن تنام ملء أعينها حتى يأتي هذا المجهول فيقول :اذهبوا بي إلى النار فقد مزقت جسداً طاهراً وأزهقت روحاً بريئة

يقولون وكم من مثل هذا في أوربا .! وهكذا يقدر للامم المغلوبة على أنفسها أن تأخذ غثاء البحر ولا تغوص على أصدافه، وكم في أوربا من جد وهزل،وقوة وضعف،وسمو وانحطاط، فما لنا لا نتكيء إلا على الجانب الاخس من جانبيها.؟مالنا ننظر من أوربا جانب الانخلاع والابتذال،ولا ننظر منها جانب الجهد القاهر والعمل الجبار؟ في أوربا مرض قاتل يساور جسما قويا فهو يغالبه ويقاومه حتى يقضي الله أمره فيه.وها هم (أولاء) أولو الرأي وعلماء الاجتماع الاوربيون يقولون ان أوربا تنتحر في هذا السبيل الذي نحن فيه،وها هو (ذا) زعيم أوربا موسوليني يسد سبيل الغواية،ويدرأ سبل الفساد،ويأخذ النساء بالقصد والاحتشام أخذاً لا رفق فيه ولا هوادة

في المرأة المصرية الآن عجز ظاهر عن الزوجية الصالحة والامومة الصالحة، وهذه الامومة الصالحة هي المرتبة الثانية بعد الرسالة والنبوة ، واذا أخلصت لها المرأة أنشأت الامة التي لا يصرعها غالب،وابتنت الوطن الذي لا تصدعه حادثة ،

ولا تكاد اليوم تجد رجلا يحمد مغبة الزواج ولا طفلا يدل على حسن أثر الام، ووزارة المعارف المصرية تعين المرأة المصرية على هذا العجز وتدفعها الى هذا العبث ، فهي تعلم الفتاة في كل مراتب التعليم كما تعلم الفتى ، وتربيها على الغرار الذي تربيه عليه . وهكذا تلبس المرأة لبوس الرجل فلا تصلح أن تكون رجلا ولا امرأة . وكان من أخطر عواقب هذه المأساة أن أعلن الفتيات المتخرجات في الجامعة المصرية ، تمردهن على الحياة النسوية فآثرن العمل خارج المنزل على العمل داخله،وبذلك فررن من الميدان الذي هيأهن الله له،وانخلعن عن المملكة التي توجهن الله فيها ، وانسلخن عن الفطارة التي فطرهن الله عليها

إن الوطن لايزيد شيئا اذاضمت اليه كاتبة في وزارة أو مدرسة في مدرسة، أو معيدة في كلية أو محامية في محكمة، ولكنه يزيد زيادة صالحة اذا أضيفت إليه أم صالحة مثقفة تعرف للامومة حقها من العمل الصالح الجليل

لاسبيل إلى رياضة المرأة واصلاح أمرها إلا بأن يكون الدين أساس التربية النسوية في المنزل والمدرسة، فهو وحده الذي يعصمها من السوء ، ويصرفها عن الزلل،وهي بما لها من رقة العاطفة ويقظة السريرة،وانتباه الضمير،ودقة الوجدان تتصور عظمة الله ، وتستشعر حبه وخشيته أشد مما يتصور الرجل ويستشعر

الدين وحده هو الذي يروض المرأة على الصبر والاحتمال ، وعلى الصدق والاخلاص ، وعلى الامانة والوفاء ، وعلى الزوجية الصالحة والامومة السعيدة ، وذلك ماعرفته المدارس الاوربية فيما عرفته من قواعد اصلاح المرأة فما لنا لانعرفه وما لنا لانأخذ به ؟

أيها المصريون : ان النار تشيع في أحشاء الوطن ،وتوشك أن تحرق ماأبقاه الضنى من قلبه ،وان أمر المرأة هو مقتل هذا البلد ، وان مسئلة المرأة هي الاولى والاخيرة وهي الحياة والموت .هذه كلمتي أيتها السيدة الفاضلة ولعل فيها مقنعا لك وتفضلي بقبول تحيتي واجلالي ع . ع

وفيات الاعيان

(فجيعة الاسلام ، باغتيال الغازي محمد نادرخان ملك الافغان)

اتفق أن تأخر صدور هذا الجزء من المنار عن تاريخه المبين في الصفحة الاولى الى أن فاجأنا قبل طبع هذه الكراسة الاخيرة منه نبأ البرقيات العامة باغتيال شرير أثيم ، وشيطان رجيم ، للملك المصلح المعظم ، السياسي الحكيم ، وأبي الشعب البر الرحيم ، الغازي محمد نادرخان ، ملك الافغان ، فكان لنبأ اغتياله دهشة واضطراب ، وحسب له المفكرون كل حساب ، وأول ما حسبوه وقدروه أن هذا الأمر الإمر ، والحادث النكر ، من كيد أمان الله خان المخلوع الطريد وحزبه حزب الالحاد والافساد ، وانه يخشى أن تتجدد بذلك الفتنة والثورة في تلك البلاد ، فان صح هذا وكان لهذا الحزب بقية نفوذ في أفغانستان ، خشينا أن يعقب هذه الجريمة جرائم ، وأن تجر هذه الجريرة وراءها عدة جرائر ، ويشتد التنازع فيها بين الايمان والكفر ، والعرف والنكر ، والفضيلة والرذيلة ، والصيانة والاباحة ، حماها الله وحفظها من ذلك

جاء النبأ المعظم يوم الخميس ٢٠ رجب فأقبل العلماء والامراء والوزراء والوجهاء على دار السفارة الافغانية في العاصمة يعزون وزيرها المفوض الاستاذ محمد صادق المجددي الذي هو خير ممثل لهذا الملك المسلم المجدد لهداية الاسلام وحضارته ، ويسألونه عما ورد عليه من الاخبار الرسمية ، وظلوا يترددون على دار السفارة ثلاث ليال وثلاثة أيام من بعد صلاة العصر الى منتصف الليل ويكر كل فوج منهم السؤال في كل وقت عن أنباء الفجيعة ، وعن حال البلاد بعدها من حيث السكينة ، والطمأنينة فكانت البرقيات كل يوم باعثة على الاطمئنان ، واجماع الامة على مبايعة نجل الغازي الشهيد محمد ظاهر خان ، وهو شاب يافع يناهز العشرين ، وقد بشرنا الوزير المجددي بحسن تربيته الاسلامية العسكرية ، فهنئه ونعزيه داعين له بأن يكون خير خلف لوالده في اقامة دين الاسلام ، وحضارته الجامعة بين القوة والثروة والفضيلة والعرفان ، ونسأله تعالى أن يتغمد سلفه الغازي الشهيد بالرحمة والرضوان

وقد أخرنا بعض ما كان جمع من هذا الجزء لايداعه هذا النبأ وشعور المسلمين به وفيه ، وسنعود الى الموضوع وذكر بعض مناقب نادرخان في الجزء التالي إن شاء الله تعالى .

دائرة المعارف الاسلامية

كان علماؤنا هم الذين سنوا سنة وضع المعاجم التاريخية بأنواعها، وضعوها أولا لرجال الحديث النبوي ثم لطبقات العلماء من فقهاء وأدباء وأطباء وغيرهم، ولكل من يعنى الناس بتاريخهم من الملوك والوزراء والقواد وغيرهم ثم للانساب وللبلدان والامكنة، ثم وضعوا المعاجم للاصطلاحات العلمية وأصغرها كتاب التعريفات للسيد علي الجرجاني وآخر ما وصل إلينا منها (كشاف اصطلاحات الفنون) ثم للكتب المصنفة

ولكن علماء الافرنج الذين اقتبسوا العلم والحضارة من سلفنا وكتبنا العربية قد كملوا هذا النوع من التأليف فوضعوا المعاجم الجامعة لجميع شعب التاريخ وأنواع العلوم والفنون ويسمونها (أنسكلوبيذية) وسماها علماؤنا (دائرة المعارف) ثم ارتأى بعضهم أخيراً أن تسمى الموسوعات أو المعلمة. ولكل شعب من شعوب العلم والحضارة دائرة معارف جامعة بلغتها غير المعاجم العلمية والفنية الخاصة. وتبلغ الدائرة منها عشرات من الاسفار الكبيرة، ويتولى تأليف كل منها أفراد كثيرون من الاخصائيين في العلوم والفنون توزع المسائل على كل منهم فيما يتقنه في وقت واحد

هذا النوع من المعاجم الجامعة ضروري لكل أمة لها لغة راقية مدونة كمعاجم اللغة يتوقف عليها تقدمها العلمي، وقد كان أول من تصدى لسد هذه الخلة في نهضتنا العربية الحديثة المعلم بطرس البستاني الشهير صاحب المعاجم العربية والمصنفات والصحف في بيروت في الثلث الاخير من القرن الميلادي الماضي، وقد حبذ رأيه هذا والي سورية التركي والصدر الاعظم للدولة وشجعاه ووعداه بالمساعدة، وسبق إلى هذه المساعدة اسماعيل باشا خديو مصر فاشترك بألف نسخة من كل جزء يصدر من هذه الدائرة وأهدى مؤلفها مكتبة كبيرة من مطبوعات مصر للاستمداد منها، وكانت قيمة الاشتراك ألف جنيه مجيدي، وصرح بأن هذا المعجم ضروري للامة، ولكن البستاني توفى بعد اصدار عدة مجلدات فتولى العمل بعده نجله سليم البستاني فانتهى عمله بإتمام الجزء التاسع، وبعد وفاته تولى ذلك سليمان البستاني بمساعدة أخويه نسيب ونجيب فأصدر الجزئين العاشر والحادي عشر الذي انتهى

بخلاصة تاريخ الدولة العثمانية من حرف العين . وكان المعلم بطرس أصدر الجزء الاول في سنة ١٨٧٦ ثم كان صدور الجزء الحادي عشر في سنة ١٩٠٠ وحال دون المضي في العمل كساد العلم وعدم وجود أمير ولا كبير كاسماعيل باشا يساعد عليه ، وهو يحتاج الى نفقات كثيرة ومساعدين على النسخ والترجمة من اللغات المختلفة

ثم تصدى الكاتب الاجتماعي محمد فريد افندي وجدي لاصدار معجم عصري جديد يحل محل دائرة آل البستاني فألف كتابا سماه كنز العلوم واللغة ووصفه بقوله «دائرة معارف عامة تحتوي على فصيح اللغة العربية وخلاصات العلوم النقلية والعقلية والتاريخية والعمرانية وتراجم المشاهير وفيها من الفوائد الطبية والعلاجية والوسائل الحيوية مايحتاج الانسان اليه في سائر أحواله المعيشية » وشرح هذه المقاصد بالتفصيل في صفحة ونصف صفحة من القطع الكبير بالحرف الصغير وقد بدأ بطبعه في سنة ١٣٢٣ ، وأتمه في آخر سنة ١٣٢٤ فبلغت صفحاته ٨٥٨ صفحة وأتمه بذيل لما فاته من المواد في ١٠٦ صفحة

ولما صدر الكتاب تبين أنه لم يف بشيء مما ذكره في مقدمته وأعلنه في الجرائد والنشرات (الاعلانات) ومن المعلوم بالضرورة أن هذه الصفحات لا تسع أقرب تلك المقاصد وأسهلها تناولا على المؤلف وهو فصيح مفردات اللغة العربية فضلا عن خلاصات جميع العلوم النقلية والعقلية الخ الخ والمؤلف لم يدرسها كلها ولا بعضها درسا يتسنى له به أن يكتب خلاصات لها فدراسته لم تعد المدارس الاميرية الثانوية

انتقد الناس هذا الكتاب بما كان من غلو مؤلفه في الاعلان عنه كعادته وربما كنا من أشدهم انتقادا فكسبنا به عداوة بعد صداقة، ولكن الكتاب راج بتأثير الاعلان وتقريظ بعض الجرائد التي تراعي في تقريظها ارضاء المؤلفين بدون وقوف على ما كتبوا وهذا الرواج حمله على تأليف معجم آخر مبسوط سماه (دائرة معارف القرن العشرين) بلغ عشرة أجزاء ،وقد وصفه بما وصف به كنز العلوم واللغة وهو كالشرح له،فما كان من هذا الشرح منقولا من الكتب بنصه فله حكم تلك الكتب وما كان منه منقولا بالمعنى مع التصرف بزيادة أو نقصان ففيه مالا يحصى من الخطأ والغلط ، حتى روي ان احمد باشا تيمور المؤرخ الاديب واللغوي المشهور جمع من الاغلاط

التاريخية في هذه الدائرة جزءاً كبيراً ، وسئل عنه أحد علماء الأطباء المشهورين فقال : إن ما رآه فيه من المسائل الطبية كثير الغلط ، ونقول نحن إن ما فيه من الغلط والخطأ في العلوم الدينية من نقله وآرائه لعله أكثر من غيره

من ذلك تعريفه للحديث في مادة (حدث) بأنه ما روي عن الرسول ﷺ من (الكلام) ومنها ماذكره من سبب تدوينه ، ومنها ماذكره من تشكك الأئمة فيه ، ومنها ماضبطه من عدد ماصح عن بعضهم بسبب تشكيكهم كقوله إنه لم يصح عن البخاري إلا (٢٦٠٠) فقد صح عنه أضعاف ذلك وانما اختلف الحفاظ في عدد أحاديث جامعه الصحيح بسبب ما فيه من التكرار للحديث الواحد مختصراً ومطولا وموصولا وغير موصول في الابواب المختلفة ، وهذا العدد مع زيادة اثنين عليه هو ماحرره الحافظ ابن حجر للمتون الموصولة غير المكررة . ومن المعلوم ان له في أسانيد جامعه هذا شرطا خاصا به لم يشترطه في غيره مما يصححه في سائر كتبه ، ومنه بعض أحاديثه المعلقة فيه ، ولا محل لتفصيل هذا هنا

(ومنها) قوله ان أول من ألف الحديث الامام مالك في الموطأ

(ومنها) انه عند ماذكر « المجموعات الشهيرة » بالكتب الستة الصحيحة » أخرج منها جامع الترمذي ووضع فيها سنن الدارقطني ، وهذا لم يقله أحد ، كما انه لم يقل أحد إن هذه الستة كلها صحاح ، وانما التزم الصحيح في المتون المسندة منها البخاري ومسلم فقط . وأصحاب السنن يروون الحسان والمعلولة مع بيان العلل ويكثر في الترمذي الضعاف وهي في ابن ماجه أكثر بل لا تخلو من الموضوع

فهذه بضعة أغلاط في كلمة (الحديث) وهي من أهون أغلاطه في المسائل الاسلامية فان الغلط في أصول الاعتقاد وتفسير القرآن

وجملة القول أن هذه الدائرة لا يوثق بها ولا يعتمد عليها ولكنها راجت عند جمهور الناس على قصورها وقلة مادتها لشدة الحاجة إلى هذه المعاجم حتى ان وزارة المعارف أخذت منها نسخا لمكتباتها لعدم وجود معاجم علمية تامة باللغة العربية غيرها ، وإن كان ينقصها مواد كثيرة ضرورية في كل مقصد وموضوع من موادها ، وهذا محل الشاهد ، ولا نقصد به نقد هذا الكتاب الذي لم نطلع عليه مجتمعا إلا من عهد قريب

بعد هذه المقدمة أقول ان علماء الافرنج لم يرو غليلهم من العلم كثرة وجود هذه المعاجم عندهم حتى انتدب جماعة من علماء المشرقيات منهم إلى وضع معجم خاص بالشؤون الاسلامية وهو الذي اشتهر بدائرة المعارف لاسلامية وقد صدر منه بضعة أجزاء ولم يتم وقد أوشك أن يتم كما قيل ، واذا كنا في أشد الحاجة إلى معجم علمي عام بلغتنا ، فاننا لفي أشد الضرورة إلى مثل هذا المعجم الخاص بملتنا وأمتنا .

واذا كان لعلماء الافرنج الذين ألفوا لنا هذا المعجم منة علينا لأنهم فعلوا لنا مالم نفعله لأنفسنا ، فإن من أكبر العار علينا أن لا نبادر إلى نقله إلى لغتنا ، وان لمن ينقله إليها لمنة يجب أن نشكرها لهم بالقول والفعل ، ونحمد الله أن نهض لأداء هذا الواجب جماعة منا فشرعوا في ترجمته بلغة الاسلام العامة التي يقرؤها المسلمون من جميع الشعوب وهي العربية ، وان قراءته لا تنفع لنا من قراءة الاصل بلغاته الثلاث (الانكليزية والفرنسية والالمانية) للاسباب الآتية :

(١) ان حاجة الانسان إلى معرفة نفسه في المرتبة الاولى وحاجته الى معرفته غيره فيما دونها من المراتب المديدة لا فرق في هذا بين الافراد والجماعات والامم ، وهذا أول معجم عام في هذا الموضوع

(٢) إن معرفة النفس لا تتم في صحتها أو كمالها ، إلا بالوقوف على آراء الاغيار فيها من المستقلين في الرأي والجائرين فيه ولا سيما الخصوم منهم ، ولن نجد هذا كله إلا عند جماعة هؤلاء الافرنج المستشرقين

(٣) ان المواد التي يستمد عليها المؤلفون لهذا المعجم في أوربة غزيرة ، وان طريقتهم في النقل والتمحيص معبدة عندهم ، وان الشعوب الافرنجية كلها تعتمد على تحقيقهم وحكمهم لنا وعلينا ، وان أكثر المعجبين بعلوم أقوامهم وحضارتهم منا يقبلون مايكتبونه عن ديننا وحضارتنا وتاريخنا ، بل الامر أعظم من ذلك ، وهو أن ملاحدتنا والمرتابين واللاأدريين من أقوامنا يقبلون كلامهم في الكتاب المعصوم والنبي المعصوم ﷺ أيضا

(٤) إن هذه الترجمة تنقل كلام هؤلاء المؤلفين نقلا صحيحا وتعلق عليه في الحواشي ما تراه محتاجا إلى التصحيح والتصويب أو التحقيق ، ويستعين المترجمون على هذا بالاخصائيين من علمائنا في كل مادة من المواد تحتاج إلى هذا ، فبهذا نكون

مشاركين للمؤلفين في تأليفهم هذا ويكون اسم (دائرة المعارف الاسلامية) موافقاً للمسمى بقدر مايتفق لها من تحقيق واضعي هذه الحواشي لها

وأما الذين تولوا أمر الترجمة فهم الاساتذة محمد ثابت الفندي (ليسانس وماجستير في الفلسفة، واحمد الشنتناوي (ليسانس في التاريخ وفي الفلسفة) وابراهيم خورشيد (ليسانس في التاريخ) وعبد الحميد يونس. وقد عنوا باصدارها في أجزاء متفرقة كأجزاء المجلات في كل شهرين جزءا ، وصدر الجزء الاول في شهر جمادى الآخرة الماضي الموافق لشهر أكتوبر وصفحاته ٦٤ من القطع الكامل منها مقدمة وجيزة في أربع صفحات وفيها حواش بامضاء الاساتذة ابراهيم مصطفى ومحمد مسعود ويوسف الدجوي ومحمد فريد وجدي واحمد زكي باشا

وحاشيتا الاستاذين الدجوي ووجدي في موضوع خاص بالقرآن من كلام الدائرة في ابراهيم الخليل ﷺ ففيها ان القرآن سمى أباه آزر مخالفا لاسمه في التوراة، فأجاب الدجوي عنها بالاحتمالات التي نعهدها ونعرفها ولا يقبلها أحد من متعلمي هذا العصر فضلا عن الافرنج ، والثانية في زعمها « ان شخصية ابراهيم كما في القرآن مرت بأطوار قبل أن تصبح في نهاية الامر مؤسسة للكعبة» وأوردت الشواهد من السور المكية فالمدنية على هذه الدعوى الخاطئة الكاذبة، فأجاب عنها فريد أفندي وجدي بكلام طويل أكثره يدور حول الموضوع ويحلق فوقه عن قرب أو بعد من حيث بقيت أكثر الشبهات رابضة في مكانها وسأبين هذا في مقال خاص إن شاء الله تعالى

فأنصح لمترجمي الدائرة أن يعرضوا كل ماله علاقة بالدين الاسلامي ولا سيما الكتاب العزيز والسنة السنية على أعلى علماء الازهر علما ورأيا ومكانة وهما الاستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الازهر السابق والشيخ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية ليكتبا أو يختارا من يكتب فيه ما يبين الحق ويدفع شبهات القوم بما تقوم به الحجة ، ولا يكون موضعا للنقد ، وسببا للاخذ والرد، فتضعف به الثقة بالدائرة ، وانصح لقراء المسلمين حينئذ من جميع الاقطار أن يشتركوا في هذا المعجم ويقتنوه، وقيمة الاشتراك في ستة أجزاء يتألف منها من ٦٤ صفحة من القطع الكامل ٤٠ قرشا في القطر المصري و ٧٠ في خارجه منها أجرة البريد

مدرسة دار الحديث بمكة المكرمة

أسست في مكة المكرمة مدرسة لاحياء علم الحديث بهذا الاسم وقد جاءنا من مديرها بيان لذلك قال فيه بعد مقدمة وجيزة ما نصه :

ولما كان المسلمون في أشد الحاجة الى احياء سنة رسول الله ﷺ لان حياتهم متوقفة على ذلك ، وكانت مكة المكرمة مهبط الوحي ، ومشرق نور الرسالة ، وفيها قبلة المسلمين ، فكر جماعة من أهل الغيرة في انشاء مدرسة بها لهذا الغرض ، وقد وفقنا الله تعالى وله الحمد والمنة لافتتاحها في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٥٢ بعد الاستئذان من أولي الامر ، ولم يبق الا مساعدة المسلمين لها بآرائهم السديدة ، وبما يجودون به نفوسهم الكريمة من مبرات وخيرات ، وبكل ما استطاعوا من معونة عملا بقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

ولا ريب ان هذا العمل من خير الاعمال وأفضلها ، ومن الجهاد في سبيل الله فقد قال الله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقال ﷺ « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » رواه البخاري . وغير خاف ان مكة المكرمة هي أم القرى وموضع احترام المسلمين جميعا ويسرهم أن تكون كما كانت من قبل مورد العلماء ، وملتقى الفضلاء

فهذا أوان العمل ومن وثق بما عند الله ووعده أنفق في سبيله قال تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم) وقال تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وقال سبحانه (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

علوم المدرسة : أما علوم المدرسة فهي الحديث دراية ورواية ، والتفسير وكيفية التفقه فيهما اقتداء بأئمة الهدى ، ولا بد من قراءة الكتب الستة التي هي دواوين السنة والتفقه في أسانيدها ومتونها وحفظ جملة صالحة منها مع حسن استحضار كثير من مظان الحديث واللغة العربية ألفاظا وأسلوبا وقواعد وآدابا .

التعليم فيها : أما التعليم فيها فمقرر مجانا وتصرف الكتب والادوات للطلبة

بلا مقابل ، وبعض الطلبة تعطى لهم إعانات مالية أيضاً . ومدة الدراسة ثلاث سنين مؤقتاً وقد تزاد اذا دعت المصلحة

طريقة التعليم : أما طريقة التعليم فهي كما يأتي :

(الاول) إلقاء الدروس باللغة العربية الفصحى وتعويد الطلبة الكلام الفصيح

(الثاني) تعليم القواعد بطريقة الاستقراء والاستنتاج والاكثار من التمرينات

(الثالث) اشراك الطلبة في الدرس حتى لايكون كالخطابة والمحاضرة تلقى عليهم وهم سكوت ثم ينصرفون .

(الرابع) تعويد الطلبة التفكير الصحيح وحرية الرأي وتثقيف عقولهم .

وللمدرسة هيئة ادارية متشكلة من أعيان الحجاز وعلمائه الموقعين على هذه النشرة الاعضاء المستشارون : وكذلك لها أعضاء مستشارون في سائر الممالك الاسلامية من العلماء والأعيان فالمدرسة ترحب بكل غيور على السنة وتدعوه الى معاونتها بكل ما أمكن من جاه ومال ورأي وعلم ، والله لايضيع أجر من أحسن عملا

طريقة الاعانة المالية :

(١) اذا كان المتبرع بمكة المكرمة فنرجوه أن يسلم الاعانة لمدير المدرسة أو لأمين صندوقها ويأخذ سند الاستلام

(٢) وأما من كان في الخارج فعليه أن يرسل الاوراق المالية ضمن ظروف مسجلة باسم المدير أو يرسل حوالة على البريد أو أحد البنوك أو أحد التجار المعتبرين باسم المدير ، ويوضح اسمه وعنوانه حتى ترسل اليه الوصولات ، وكل من لم يصله الوصل في ظرف شهرين فله أن يراجع المدير بشأن اعانته . وليس لدار الحديث وكيل طواف متنقل في البلاد يجمع باسمها الاعانات . فنحذر الناس من المحتالين وننصحهم ألا يعطوا أحداً شيئاً باسم دار الحديث ، وليعلموا أن ليس في الحجاز كله دار حديث مصرح لها رسمياً غير التي بمكة . وفي الختام نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه وينجحنا في قصدنا ، وهو تخريج طائفة من العلماء المحققين المستقلين في الفكر ، والمتبعين للسلف الصالح في فهمهم للدين والعمل به والدعوة اليه وما ذلك على الله بعزيز

(وقد ضاقت الصفحة عن ذكر أسماء سائر المؤسسين) مدير المدرسة

عبد الظاهر محمد ابو السمح